المشرق

السنة الخمسون — كانون الثاني – شباط ١٩٥٦

تاريخ الدول السرياني

تأليف أبي الفرج الملطي (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

ثم ولّى ايلجيكتاوي بلاد الروم والكرج والموصل وسورية وقيليقية. وارسل يلواج الامير الكبير الى بلاد الخطا . والامير سعود بك الى العجم . وولّى الامير ارغون خراسان وهمذان واذربيجان وشروان ولور وكرمان وطرف الهند . وقلّد سلطنة بلد الروم السلطان ركن الدين وردّ الملك هيتوم والكرج والفرنج مكرّمين . وخاطب سفير الخليفة مهدّدًا تهديدًا قاسيًا . وطرد رسل الاسمعيليّين محتقرين مهانين . واتّخذ قداق المسيحيّ حاجبه مديرًا ومدبّرًا .

وكان كيوك مسيحيًّا قويًّا ارتفع شأن المسيحيّين في عهده وحفل معسكره بالاساقفة والكهنة والرهبان . وعُرفت يومئذ امرأة عربية اسمها فاطمة خاتون احرزت القربى لدى توركينا خاتون والدة كيوك خان واطّلعت على غوامض

اسرارها . ولسوء الحظ رفع بعضهم الدعوى عليها لدى كيوك خان بانها ساحرة تتحامل عليك وعلى اخوتك فبعث وطلبها من امه . فرفضت طلبه فأحضرها قسرًا وقتلها . وحدث بسبب ذلك خلاف بينه وبين امّه وما عتم ان ماتت الامّ كذلك . وقد عرّوا فاطمة وتركوها اياماً دون اكل وشرب وظلّوا يصفعونها حتى أقرّت بانها ساحرة . فخاطوا منافذها الظاهرة والخفيّة وجعلوها في لبّاد واغرقوها في الماء ، وفتكوا بجميع أنسبائها الذين كانوا يجتمعون عندها . ولولا ذلك لاستولت بعد قليل على كلّ (٤٨٢) المملكة بسبب استئناس توركينا الملكة بها .

وفي تلك الغضون نهض كيوك خان يريد الذهاب الى بلاد المغرب ووصل الى مدينة بعيدة سبعة ايّام عن بيت باليغ وهناك ادركته المنون .

وعلى اثر وفاة غياث الدين رام بعض الزعماء ان يخلفه ركن الدين ثاني ابنائه . فشعر الوزير شمس الدين اصفهاني وقبض عليهم جميعاً وفتك بهم . وتكبّر وتجبّر واتّخذ ام السلطان عزّ الدين زوجةً له وولدت له ابنًا . واستاء الجميع من هذا التطاول . على ان شمس الدين هيّأ ذهباً كثيرًا واقمشة ملكيّة وخيولا وارسلها مع الفتى ركن الدين بمثابة وديعة الى التتر كما ذكرنا تأييدًا للصلح . ولمّا زار الفتى كيوك خان انتهز الفرصة بهاء الدين الترجمان ورفع الشكوى على الوزير لكونه قتل الزعماء واتّخذ امرأة السلطان المتوفي زوجةً وأمر باقامة سلطان جديد دون امر الخان . فاصدر الخان امره بعزل عزّ الدين وخلافة ركن الدين الذي زاره . وان يتولّى بهاء الدين الترجمان وزارته ويُعزل شمس الدين .

ولمّا عوّل الوفد على الرجوع تخوّف الوزير ووجّه رشيد الدين سوباشي ملطية في ذهب جزيل وجواهر ثمينة الى الخان ليأتيه بالخبر الصحيح . ولمّا وصل الى ارزنجان بلغه ان ركن الدين وبهاء الدين الترجمان يصلان قريباً فملكه الرعب وسار بالهدايا التي معه الى قلعة قماح وانهزم هو مع نفر الى حلب . وما عتم ان وصل بهاء الدين في الفين من المغول وخُطب للسلطان ركن الدين في ارزنجان وفي سبسطية وقيسارية وملطية وحصن زياد وآمد . ونصب حكّام جدد وولاة في كلّ مكان وعزلوا اصحاب عزّ الدين .

ثم وجّه الترجمان سفيرًا (٤٨٣) الى حلب فقبض على رشيد الدين الذي

نهزم وساقهُ الى قلعة هابيج وزجه فيها . وهي قلعة لم يُسجَن فيها أحد وينجُ من الموت سوى هذا الذي أُشفق عليه وأُطلق . ففي سور تلك القلعة المبنية على صخر شاهق باب عليه لوح صغير لا يتيسر لاحد ان يقف عليه او يجلس فوقه . وكان اذا صدر حُكم الموت على زعيم مشهور لا يريدون ان يقتلوه علانية بعثوه الى تلك القلعة واقاموه فوق ذلك اللوح واغلقوا الباب في وجهه . فيظلّ هناك واقفاً يوماً او يومين حتى يغلبه النعاس فيسقط ويموت . وقد تمت تلك الحوادث كلها مع ذهاب الوفد الى التتر ورجوعه في مدة ثلاث سنوات .

وفي السنة ١٥٦٠ لليونان (١٢٤٩م) وصل بهاء الدين والتتر فخاف الوزير شمس الدين الاصفهانيّ وحاول ان يأخذ السلطان عزّ الدين ويعصي في احدى القلاع التي بالبحر . فلمّا شعر بذلك شيخ من اقطاب السلطان علاء الدين اسمه جلال الدين القراطي وكان رجلاً صالحاً رحيماً زاهداً في اكل اللحم وشرب الخمر ومخالطة النساء . ارسل فقبض عليه في بيته واعتقله واخبر بهاء الدين حالاً . وهذا بدوره ارسل التتر فجعلوا ينكّلون به حتى اعلمهم بذخائر طائلة وبعد هذا اجهزوا عليه . وكان هذا الاصفهانيّ عالماً ماهراً جداً وعندما عرف انهم مزمعون ان يفتكوا به جعل يندب نفسه بعبارات فارسية بليغة مؤثرة مفرغة في قالب جذل . وعلى اثر قتله تولّى جلال الدين وزارة السلطان عزّ الدين ووزّعت البلاد على الاخوين فاصبحت قونية واقسرة وانقرة (٤٨٤) وانطاليه اعني بلاد المغرب لعزّ الدين والمدن الشرقيّة لركن الدين .

على ان اصحاب ركن الدين لم يكتفوا عن الخصام اذ كانوا يرومون ان يُسمّى هو وحده السلطان دون عزّ الدين فاحتال القراطيّ وارسل يقول لهم : ان ركن الدين هو السلطان الكبير طبقاً لرغبتكم ووفقاً لأمر الخان الذي معكم فانهضوا واتوا به الى أقسرة ويأتي كذلك عزّ الدين فيرضى بما يهبه له اخوه . فامتثلوا المشورة واقبلوا جميعاً . وتوجّه كذلك عزّ الدين من قونية . وعند ذلك كمَنَ جنود التتر في جانب آخر واجهزوا على اصحاب ركن الدين وقبضوا على بهاء الدين اتابك ثم اخذ عزّ الدين اخاه ركن الدين الى قونية معه دون ان يؤذيه . وتولّى الاخوة الثلاثة عرش المملكة وضُربت سكّة الدراهم باسماء ثلاثتهم .

وفي السنة ١٥٦١ لليونان (١٢٥٠ م) خرج ملك فرنسا (لويس التاسع) ملك الفرنج في جموع عظيمة من فرسان ورجّالة وجنود ابطـال وابحروا في مراكب وسفن ضخمة مشحونة ذهباً وفضّة فوق الحدّ وأهبة وذخيرة وافرة . وارتجت الارض بخبرهم وذاع انهم يقصدون مصر . امّا الملك الصـالح ابن الكامل صاحبها — وكان قد تولّى حمص وفلسطين على اثر وفاة أخيه العادل الصغير وحارب الملك الاشرف المتسلسل من اسد الدين شيركوه عمّ صلاح الدين الكبير ثم تولّى تل باشر — فهذا الملك الصالح لمّا بلغه خبر الفرنج ترك (٤٨٥) حمص وبادر الى مصر وحلّ في المنصوريّة المكتظّة بالأشجار واوقع صيحة في العرب فاجتمع اليه الجماهير من الاسكندريّة ومن قوس واسوان . امّا الدمياطيّون فلما رأوا الفرنج محدقين بهم ملكهم الرعب فافرغوا المدينة من كلّ ما بها قبل ان يضايقهم احد او يحاربهم وذهبوا باهاليهم واموالهم جميعاً الى مصر .

امّا زعماء دمياط فقد سألهم الملك الصالح هل ضايقكم الفرنج في القتال ؟ قالوا كلّا بل خفنا ان يحدث لنا ما حدث في كرّة لغيرنا اذ تتلهم الفرنج ولم يكترث لهم احد . فسخط الصالح عليهم وأمر بصلبهم وهم ٦٤ اميراً على ٣٢ صليباً زوجاً زوجاً كما هم بثيابهم ومناطقهم وخفافهم . وما عتم ان مات هو كذلك بسبب داء عرض له في فخذه فقطعوا الفخذ وهو حيّ . وارسل زعماء مصر في استدعاء الملك المعظّم ابن الصالح من حصن كيفا وملّكوه عليهم . وكان حاجبه فخر الدين عثمان ابن شيخ الشيوخ الوزير الاكبر .

امّا الفرنج فدنوا من سور دمياط ولم يسمعوا صوت حرّاس قطعاً ولم يشاهدوا احداً في الابراج فدهشوا وارسلوا فريقاً الى الميناء فلم يشاهدوا مخلوقاً ففرفروا انهم قد انهزموا ودخلوا المدينة يوم الجمعة مطمئنين مسرورين ولم يشاهدوا فيها من يبول في حائط . وجعلت السفن تنقل لهم الميرة من البحر . غير ان عقلهم المعوجّ لم يَدَعهم يصطبرون ليختبروا عادة البلد ومنافذ الانهار والطرق بل سارعوا وعبروا غديراً في النيل وساروا نحو مصر بعيدين عن الماء . ووصلوا الى مكان قحل . وسار وراءهم بعض (٤٨٦) جنود العرب واحاطوهم فاصبح الفرنج بينهم وبين الماء . يعذّبهم الجوع والعطش ويعذّب خيلهم . عند ذلك تشجّع العرب وضربوهم ضربةً هائلة جـدّاً وفتكوا باغلبهم واعتقلوا الملك واقطابه

ومضوا بهم الى المعظَّم فحبسهم هناك عنده . واشار عليه المماليك الصغار اقرانهُ قائلين : ان قتلت هذا الملك الفرنجي فلن تنجو كلَّ حياتك من محاربتهم؛ لان ملوكهم كثيرون واشدّاء . فالرأي ان تستحلفهم بانه منذ الآن الى مائة وعشرين سنة لا ينازل العرب لا هو ولا اخوته ولا ابناؤهم ولا حفدتهم واطلقه ليذهب ويشكر لك فضلك عند ابناء دينهِ . هكذا استرحْ وارتعْ في الطمأنينة ولا تبدّد ما خلفه آباؤك من الكنوز في سبيل الجنود . فاصغى المعظم الى مشورتهم واستحضر ملك فرنسا ليلًا اليه واستحلفه كما رأى واجزل له العطاء وسرّحه .

قيل انه لمّا كان ملك فرنسا المشار اليه معتقلًا ورده النبأ بان الملكة امرأته ولدت له ابناً في دمياط . فسمع المعظّم وسيّر اليه عشرة آلاف دينار ذهباً ومهدًا للطفل ذهبياً وحللًا ملكيّة .

امّا العبيد شيوخ والد المعظّم فلما شعروا باطلاقه ملك فرنسا ثار ثائرهم ووجّهوا السفن في البحر ليقبضوا عليه . ولكنهم لم يدركوه فاستلّوا السيوف وبادروا اليه فهرب منهم وصعد الى برج من خشب كان هناك فاضرموا فيه النار فلما وصلت رمى نفسه في البحر واختنق وضاعت جثته .

امّا ملك فرنسا فسار الى دمياط واخذ أهله وتوجه الى عكّة واقام بها زماناً وبنى مدينة قيساريّة وغيرها من المدن وعاد الى وطنه .

وبعدما قُتل المعظّم (٤٨٧) صاحب مصر خلفه عزّ الدين التركمانيّ احد عبيد ابيه وتزوّج شجرة الدرّ الأمة التركيّة زوجة مولاه . وبعد زمان سار يوماً الى الحمّام ليغتسل فارسلت عبيدها الصغار فقتلوه لانها سبقت فعرفت انه يريد اهلاكها . وخلفه في مصر قوتوز عبدهُ التركيّ ودُعي الملك المظفّر . وهذا قتلَ شجرة الدرّ والقى جثتها للكلاب انتقاماً لمولاه ، الّا ان الحقيقة هي انه خاف ان تقتله فسبق وأهلكها . ولقد كانت مشهورة ممتازة بجمالها الطبيعيّ وسياستها الرشيدة . وشعر يومئذٍ الملك الناصر صاحب حلب بان العبيد تولّوا مصر وجعلوا يقتلون بعضهم بعضاً كيفما كان فحشد جنوده واقبل الى دمشق وتولّى أمرها مطمئناً دون قتال .

جلوس مونككا خان على تخت المملكة المغولية

لمّا غادر باتو بن توشي بن جنكزخان معسكره في سقسين والبلغار وسار الى زيارة كيوك خان ووصل الى الاقاق قرب مدينة كيالج بلغه خبر موته . فمكث هناك وبعث الوفود الى جميع ابناء الملوك واستدعاهم اليه . فالذين تعذّر عليهم الذهاب كتبوا اليه يقرّرون الخلافة لباتو كبيرهم ويؤكدون موافقتهم له في كلّ امر . وكان ابناء كيوك خان في اوّل الامر واغول غالتميش خاتون أمهم الملكة قد زاروا باتو واقاموا عنده يومين فقط وارتحلوا وتركوا تيمور نوين وقالوا له : متى اجتمع ابناء الملوك الكبار والصغار فنحن نوافق على ما يتفقون عليه . ولما اكتمل جمعهم كلّفوا باتو ان يتولّى امر الانتخاب فان شاء فيكون هو الخان والّا فلينتخب من شاء وهم راضون خاضعون له (٤٨٨) . فقال باتو : لستُ أرى من هو كفوء بالنهوض بهذه المملكة العظيمة نهوضاً حسناً الّا مونككا . فوافقوه كلهم على ذلك وقالوا : يستحقّ ويستاهل . وقد أبدى اعتذاره كالرجل الرزين العاقل . غير انهم أجلسوه قسراً على سرير المملكة وخدمه باتو مع جميع ابناء الملوك جاثين على ركبهم وناوله الكاس كالعادة وسقاه . وتقلّد المملكة في ٩ ربيع الآخر ٦٤٩ للعرب (١٢٥١ م) . وجعلت الملكة المؤمنة الحكيمة سرقوتاني باجي والدة مونككا خان تستأنس بالاقطاب والزعما . وتقدّم لهم الهدايا السخيّة والتحف وتستميل الخوارج بالوعود الطيّبة .

واذ كانوا ينتظرون قدوم ابناء كيوك خان وامّهم اغول غالتميش وصل رجلٌ ممن يربّون السباع لتسلية ابناء الملوك وقال : اني لما فقدتُ احد السباع طاردتهُ ثلاثة ايام حتى بلغتُ بيوت ابناء كيوك خان القادمين الى هنا وشاهدتُ عجلة محطمة وصبيّاً قريباً منها يرمّمها فاستدعاني لاساعده . ولمّا دنوتُ وقع بصري على اسلحة مستورة ضمن العَجلة فسألت الغلام عنها فقال لي متعجباً كيف وانت منا تجهل هذا ؟ ان كل عجلاتنا هي مثل هذه . عند ذلك تركته وأقبلتُ لاخبركم فانتم تعرفون ما يجب . فامر مونككا خان ان يمضي منكسار القائد في الفي فارس ويلاقوا ابناء كيوك خان وقال لهم : يجب ان تحضروا انتم

مع القليلين الى مونككا خان وتروروه ثم يأتي بعدكم جنودكم . فلم يَرَوا الّا التسليم دون مراجعة . ولمّا وصلوا ومكثوا ثلاثة ايام ياكلون ويشربون ويستريحون أعلمهم مونككا خان بالخبر فخجلوا ولم يتمكنوا من الاعتذار قطعاً . عند ذلك أصدر الامر بقتل جميع الزعماء الذين ثبتت عليهم الجريمة (٤٨٩) بدءًا من ايلكيختاي نوين الذي كان كيوك قد ولّاه بلاد المغرب . وألقى جميع الباقين على الارض . ثم ارسل فاحضر كداك نوين في العَجَلة واستنطقه فأقرّ بذنبه فقتله شرّ قتلة . وقتل كذلك امرأة كيوك خان وعفا عن ابنائها احتراماً للسلالة الملكيّة وعيّن لكل منهم مكاناً خصوصياً وخدّاماً قليلين . وهكذا استتبّت له المملكة . وأقطع اخاه قبلاي بلاد الصين اعني الخطا . واخاه هولاكو بلاد المغرب . وترك لديه اريك بوكا الصغير . ووضع شريعةً لبلاد الخطا بان يؤدّي كلّ غنيّ في السنة خمسة عشر دينارًا ذهباً جزية والفقير دينارًا واحدًا . ولبلاد العجم ان يؤدّي الغني عشرة دنانير والفقير دينارًا واحدًا ولبلاد العجم ان يؤدّي الغني عشرة دنانير والفقير دينارًا واحدًا . وامر كذلك ان تؤخذ دابّة واحدة ممن عنده مائة دابّة . ويعفى من ليس عنده اكثر من مائة دابة . وأطلق الاسرى والمسجونين . وأمر ان يعفى الاحبار والكهنة والشمامسة والرهبان وعلماء المسلمين من الضرائب . ولم يستثنِ من ذلك الكرَم الّا اليهود لا غير . وقد قال فيهم احد الشعراء : لا نصيب لك ايّها اليهودي في هذا الإنعام . انما نصيبك الاحتقار ايّها التاعس !

وفي هذه السنة ١٥٦٢ لليونان (١٢٥١ م) حصل شقاق ما بين المماليك الاتراك في مصر ووجّه بعضهم الى الملك الناصر صاحب دمشق يحرّضونه ليذهب ويتولّاها . فحشد جيوشاً كثيفة وسار الى غزّة يريد مصر . ولمّا عرف الاتراك المخالفون له حشدوا جيوشهم واطلقوا اغلب الفرنج المعتقلين لديهم واقبلوا جميعاً راكبين ولاقوه (٤٩٠) بجانب غزّة وكسروه شرّ كسرة . وأفلت مع القليلين وانهزم عائدًا الى دمشق .

وفي كانون الثاني من تلك السنة توفّيت الملكة المؤمنة ايزابيل ابنة الملك لاون الكبير قرينة هيتوم بن قسطنطين ووالدة لاون الثاني الصغير ملك قيليقية . وكانت ممتازة بسخائها وفضلها وتواضعها . وكانت تتعهّد الكنائس حافيةً ولا

تكفّ عن البكاء مدّة الصلاة . اراحها الله تعالى مع سائر النساء القدّيسات .

وفي القابل اعني عام ١٥٦٣ لليونان (١٢٥٢) توجه هيتوم ملك الارمن الى خدمة مونككا خان الكبير . وتناول الاسرار الخلاصيّة يوم خميس الفصح ورحل يوم جمعة الصلبوت . وبسبب تخوّفه من ان يغدر به زعماء بلاد الروم أذاع انه يرسل اولًا سفيرًا يأتيه بالأمر ثم يسافر . وكتب كذلك رسائل الى صاحب بلاد الروم في الصدد عينه . وخرج متنكرًا مع رسول له بزيّ الغلمان يسوق فرسًا لابسًا ثيابًا رثّة راكبًا دابة خاملة . وطاف بلاد الروم دون ان يعرفه احد . ولمّا وصل الى ارزنجان عرفهُ رجلٌ من السوقة فقال : هذا هو الملك هيتوم . فسمع الرسول والتفت الى الملك وهو يسحب الفرس ولطمه وشتمه وقال : يا جاهل هل اصبحت ههنا ملكًا واصبحوا يشبّهونك بالملوك ؟ وبقوله هذا دفع عنه الشبهة . وظلّ الملك بزيّ الصعاليك حتى وصل الى حدود الكرج ثم اعلن ذاته . واستغرق سفره هذه المرّة زهاء ثلاث سنوات ونصف سنة ثم عاد الى بلده .

وفي هذه السنة انتهى الحشد الكبير لدى المغول وارتحل هولاكو اخو مونككا خان عام ٦٥٠ للعرب (١٢٥٢ م) الى بلاد المغرب حيث كان الكيكتامي متوليًا في عهد كيوك (٤٩١) وأمر مونككا خان ان يسير معه من الجيوش الشرقيّة والغربيّة اثنان من كلّ عشرة . وصحبه اخوه الصغير ستاي اغول ومن جانب باتو : بلغاي بن سبقان وقوتار اغول وتولي في عساكر كثيرة . ومن قِبَل جغاتاي تكودار حفيده . ومن جانب جيجكان بيكي اخت الخان برتاتيمور في عسكر الاويرات . ومن ناحية الخطا الف بيت من صنّاع المنجنيقات والمشرفين على النفط . وسبق الجيوشَ الاميرُ كيدبوقا رئيس الخبّازين . وترك هولاكو ابنه جومغار بدلًا منه في خدمة مونككا خان مع امّه الملكة الكبيرة وقد مات هذا الصبي في الطريق وهو قادم الى زيارة ابيه. ثم استصحب هولاكو ابنه الكبير اباقا وابنه الآخر اشموط اما دوقوز خاتون الملكة المؤمنة المسيحيّة الحقيقيّة فقد زُفّت اليه كعادة الملوك وسافرت معه . وارتفع بها شأن المسيحيّين في كل الارض . وظلّوا في طريقهم الى السنة ٦٥٣ للعرب (١٢٥٥ م) حتى بلغوا بلاد العجم .

وفي تموز هذه السنة باغت ملطية جيش التتر وعلى رأسه يساور الذي كان قد وافى اليها منذ ثماني سنوات فغزا القرى والدساكر واحرق البيوت والبيادر وقتل كلّ من كان في طريقه . وحلّ الجيش في جهة المدينة الشمالية . وسار بعض التتر الى جوباس (٤٩٢) وقصدوا دير مقرونا وطلبوا من الرهبان ذهباً وطعاماً وشراباً . فرفضوا طلبهم لسوء الحظّ ظانّين انهم يتركونهم ويرحلون. غير ان اولئك التتر انقلبوا فاحضروا جنوداً كثيرين وعادوا فتوسلوا الى الرهبان ليعطوهم شيئاً فأبوا فناوشهم التتر واضرموا في برج الدير ناراً اتّصلت باحمال صوفٍ وشمعٍ وزيتٍ كانت هناك فاشتعلت كلها واحرقت جميع الرهبان شيوخاً وشباناً . والتهمت معهم نحو ثلاثمائة من الرجال والنساء .

وفي تلك السنة ارتقى كاتب هذا التاريخ الى كرسي اسقفية جوباس وحضر في دير مار برصوما سيامة البطريرك ديونيسيوس عنجور . وكان في دير مقرونا المذكور الراهب فرج الدومنيني وتوما اللوزانيّ . ففرج رمى بنفسه من البرج ولم يؤذه التتر لكنه مات بعد قليل امّا توما فاحترق بالنار . وكان اهرون الشيخ الطبيب والد المؤرخ في قرية مربنا بالبيدر مع برصوما ابنه الصغير فلمّا انقضّ التتر لم يَرَ ان ينهزم الى دير مقرونا المذكور مع اهالي القرية بل توجه الى جهة اخرى من الجبل واختفى في مغارة حصينة تُطلّ على سواحل الفرات وظلّ مع ابنه هناك اربعين يوماً حتى انكشف التتر . وقد غرق بنلٌ واحد في النهر واقام سائر المنهزمين في برعاما وكانوا ينصرفون ليلا ليُعدّوا القوت لهم ولدوابّهم .

وفي السنة ٦٤٩ للعرب (١٢٥١ م) احتلّ بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل جزيرة فردو . ذلك ان الملك المعظّم صاحبها المتسلسل من اولاد اتابك زنكي لمّا رأى بدر الدين المذكور يتقوّى ويتشدّد ويأمر وينهي أراد ان يتحبّب اليه فخطب ابنته لابنه (٤٩٣) الملك المسعود . لكنّ الشيطان اغواه فحقد عليها وأبغضها . وجعل ابوه ينصح له ليكتم حقده فلم ينتصح . واخذت امرأته تشكو امرها الى ابيها فارسل واستدعاها اليه . وما عتم ان مات المعظّم وخلفه ابنه الملك المسعود وطفق حموه يضايقه في الطلب حتى ارسل يقول له : أريد الجوهرة الفلانيّة التي في قلادة المرأة الفلانيّة . وأريد كذا وكذا من فلانة .

وكان صهره يبعث اليه بما يطلبه . واخيراً كتب اليه بدر الدين يقول : انك قد بعتني الجزيرة لما كنا في نصيبين . فاجابه المسعود: اني راض بكل ما تطلب ما عدا التخلي عن ولايتي . عند ذلك حشد بدر الدين الجيوش وزحف الى الجزيرة يوم الثلاثاء ٢٤ جمادى الآخرة اعني نيسان من السنة المذكورة وحاصرها . فارسل المسعود يطلب الامان ووعده بدر الدين بقلعة قارح ليقيم فيها مع عياله ونسائه . فرضي المسعود وأطلق سبيل الحرّاس والجنود . لكن بدر الدين وجه حاجبه فقبض على المسعود واوثقه واركبه سفينة يوهمه انه يمضي به الى الموصل . ثم أسرّ الى الملّاحين والعبيد الذين ساروا معه ان يغرقوه في دجلة وينهزموا الى سورية ويذيعوا بانه هو الذي رمى بنفسه واختنق وانهم انما اقبلوا الى سورية خوفاً من ان يهلكهم مولاهم بدر الدين مدّعياً بانهم هم الذين أغرقوه . وقد امتثلوا الامر تماماً واغرقوا المسعود وساروا الى سورية واقاموا سنة كاملة ثم عادوا الى الموصل . واحتلّ بدر الدين الجزيرة يوم الجمعة ١١ رجب من السنة المرقومة . وهذه مدينة الجزيرة ليست من ابنية اليونان لكنّ بني عُمر المعديّين هم الذين بنوها (٤٩٤) واطلقوا عليها اسمهم فدُعيت (جزيرة ابن عُمر) .

وفي تلك الغضون كان بعض التجار يعبرون نهر جيحون الكبير في العجم وكان معهم رجل فقير لابس ثياباً رثّة وهو يقول للملّاحين اني انا هو السلطان جلال الدين خوارزمشاه وقد اذاعوا عني ان الاكراد فتكوا بي في جبال آمد . والحقيقة ان حافظ امتعتي هو الذي قُتل . امّا انا فما برحتُ منذ بضع سنوات اطوف في البلاد متنكّراً متزهّداً . فخاف اولئك الملّاحون وقبضوا عليه ومضوا به الى زعماء المغول القريبين منهم فنكّلوا به تنكيلاً شديداً حتى مات وهو يقول بانه هو هو السلطان خوارزمشاه .

وفي السنة ١٥٦٥ لليونان (١٢٥٤ م) جعل وفود التتر يتقاطرون طالبين عز الدين سلطان قونية ليذهب بذاته الى زيارة الخان الكبير والّا فان جنودهم يزحفون الى بلده ويخربونه . عند ذلك اضطرّ الخاصّة والعامّة ان يلبّي الطلب . فسار الى سبسطية وهو منهمكٌ في الخلاعة والفجور والدعارة اذ كان كلما سمع عن امرأةٍ او بنتٍ او ابنٍ من الاعيان او من العامّة اقتاده قسراً وارتكب المنكر . ذلك ما حمل العظماء على ان يكرهوه ويبغضوه . وحاولوا ان يهلكوا

عليهم ركن الدين اخاه الوسطاني بدلًا منه . فخاف عزّ الدين وانقلب عائدًا الى قونية وأعدّ علاء الدين اخاه الصغير وبعثه الى الخان وحمّله رسالة يقول فيها : هٰهذا ارسل اليكم اخي علاء الدين الصغير وهو سلطان نظيري . اما انا فبما ان جلال الدين قراطاي حاجبي قد مات وثار عليّ العدو من بلاد المغرب فقد تعذّر عليّ القدوم بذاتي ولكني سآتي في فرصة اخرى . هكذا ذهب الاخ الصغير وبعض العظماء معه لكن هولاء غدروا به في الطريق واجهزوا عليه . ولبث عز الدين وركن الدين في قونية . على ان عزّ الدين لمّا بلغه خبر موت اخيه حاول ان يفتك باخيه الثاني ويستبدّ بالملك وحده . فشعر الاقطاب بذلك وهزموه من وجهه . قيل (٤٩٥) انهم ألبسوه قميصًا قذرًا لبعض غلمان الطبّاخين ووضعوا على رأسه طَبَق طعام واخرجوه من البلاط مساء واركبوه فرسًا وأوصلوه الى قيسارية في ليلة وضحاها . وأجلسوه على التخت الملكيّ واجتمع اليه اغلب الجيش . ومضى بهم ركن الدين ليحارب اخاه عزّ الدين فبرز اليه عزّ الدين وكسره ثانية واعتقله وحبسه في قلعة دوالو .

وفي السنة ١٥٦٦ لليونان وهي السنة ٦٥٣ للعرب (١٢٥٥م) قُتل علاء الدين إمام الاسمعيليين في قلعة شيركوه اعني جبل الأسد وخلفه ابنه ركن الدين فارسل اليه هولاكو يقول : ان كانت نيّتك سليمة وان كنتَ تحبّ المصالحة والسلام لزمك ان تقوّض قلاعك كلّها وتتوجه الينا بنفسك والّا فتأهّب للحرب. فارسل ركن الدين وأخرب حالًا خمس قلاع خالية من الذخائر ولا يتيسّر لها ان تقاوم التتر . وارسل الجواب الى هولاكو يقول : باشرتُ انجاز امرك وساقوّض سائر القلاع شيئًا فشيئًا . غير ان هولاكو عرف انه انّما يحاول التسويف والمماطلة فارسل كيدبوقا الى قلعة شهدير فحاصرها يومين واحتلّها واحتلّ معها ثلاث قلاع غيرها مجاورة لها . ثم ان ركن الدين استدعى فتى مسكينًا ألبسه ثوبًا ملكيًا وسيّره الى هولاكو رهينةً . فعرف هولاكو الحيلة ولكنّه كتم الامر وردّ الفتى مكرّمًا وقال لركن الدين اني قد طلبتك انت ولم اطلب ابنك . فأرسل اليه ركن الدين أخاه شيرانشاه في ثلاثمائة فارس . فقبض هولاكو على الثلاثمائة وأرسلهم الى قزوين وردّ اليه شيرانشاه يقول اني ايّاك طلبتُ . وليلة عيد الميلاد الخلاصيّ عوّل ركن الدين على القدوم فاستلّ عبيده السكاكين

وقالوا له: اذا ذهبتَ قتلناك . فارسل يخبر هولاكو بالامر فكتب اليه هولاكو : ان يتوقّى (٤٩٦) ويحتال في الذهاب اليه حرصاً على حياتهِ . وأنه سيُهلك جميع الاسمعيليين بحدّ السيف .

امتثل ركن الدين امر هولاكو وانحدر ليلًا من القلعة وسار اليه مع بنيه واهله فرحب به ملك الملوك وارسله الى قزوين مكرّماً . اما الفرسان الثلاثمائة فقد أجهز عليهم المغول خفيةً . واحتلوا كذلك القاعة التي تركها ركن الدين وهي قلعة ميموندور وأخربوها وقس عليها قلعة آلاموت وقلعة جردكوه الشاهقة كانتا في الجوّ والقلاع الحسين المحدقة بها . فقد احتلّها التتر باسرها وقوّضوها واخربوها وفتكوا بكلّ من كان فيها .

وفي تلك الفتوحات المباركة قد اشفق الله تعالى على جميع الملوك العرب والمسيحيين الذين كانوا يخافون الاسمعيليين حاملي السكاكين وسفاكي الدماء خوفاً شديداً . ولمّا استيقن ركن الدين عطف هولاكو عليه قال له بثقةٍ تامّة : اني انّا اعيش هذه الايّام من فضلك وكرمك . فارجو ان تسمح لي لاقضيها في هناء ولذّة . فأمر هولاكو وكلاء بيت المال ان يمدّوه بذهبٍ وفضةٍ وافرة . واخذ ركن الدين يأكل ويشرب مترفها وكلف بفتاةٍ مغوليّة فأمر هولاكو ان تزفّ اليه . ولمّا كان يوماً يعاقر الخمرة قال لاحد المطربين فتغنّى بابياتٍ فارسيّة هذا تعريبها :

اقبلتُ اليك يا ملك الملوك إقبال المريض الى الطبيب .

وجئتُ الى لقائك لاحصل على الحياة .

ما جئت الى أرضك لاتجر بل لاقطف ثمار العافية من بذارك .

استحسن هولاكو هذه الابيات وازداد عطفه عليه . وبعد هذا استرخصه ركن الدين في الذهاب ليزور (٤٩٧) مونككا خان . فبعث معه سفيراً مغولياً حدثت بينهما خصومة حقد عليه السفير بسببها . وما ان وصل الى معسكر الخان حتى اخذ السفير يفتري عليه فامر الخان بقتله. واصدر الاوامر بقتل جميع الذكور والاناث الاسمعيليين على بكرة ابيهم حيثما كانوا .

وفي تلك السنة خرج بايجو نوين قائد عسكر التتر الى ارضروم فأرسل سفيراً الى السلطان عزّ الدين في شهر آب وسأله مكاناً يشتّي فيه لان هولاكو توخى

كتاب الحمامة لابن العبري

تصدير

من متروكات القلم للبحّاثة المرحوم الاباتي يوسف حبيقه الراهب اللبناني

ترجمة « كتاب الحمامة » للعلامة المفريان غريغوريوس بن العبري الملقب بابي الفرج، من السريانية الى اللغة العربية. وكنا قد وقفنا على نسخة قديمة من ترجمة هذا الكتاب، في مكتبة المخطوطات بالحرف الكرشوني في دير الشرفه، تحت رقم ٩/١٨. وهي منضمة الى غيرها في مجموعة صلوات ومقالات، جاء في آخر هذه المجموعة ما نصه: « قد ملك هذا الكتاب القس مخايل بن نعمة الله جروه (البطريرك فيما بعد)، عام ٢٠٦٥ يونانية توافق ١٧٥٤ مسيحية». وفي آخر النسخة المذكورة هذه العبارة بحرفيتها. «هذا ما قد تيسّر للعبد الخاطي في نقل هذا الكتاب (الحمامة) المبارك. ويجب ان تعلم، يا اخي تاج الدين، طريقة المفريان السيد في اللغة السريانية. ان هذا هو كتاب عظيم يستدعي شرحاً عظيماً. ويجب ان تقف عليه مع مُنبّهٍ خبير بكتب المصنّف. في هذا الكتاب رموز ومعاني مختصرة من الانجيل المقدس ومن فردوس الرهبان».

ويحسن بنا ان نأتي على ترجمة مقتضبة لمؤلف «كتاب الحمامة» هذا[1]. انه من اشهر علماء عصره. قد ألف في جميع فروع العلوم: الكتابية كتفسير الكتاب المقدس، واللاهوتية والفلسفية والتاريخية، والطبية وفي الاداب والاخلاق والرياضيات والطبيعيات وعلم الهيئة والشعر. ومن تآليفه الروحية « ܕܚܕܐܬܐ ܝܘܢܐ » كتاب الحمامة وتبدو لك الغاية من وضعه في مقدمته.

أبصر النور في السنة ١٢٢٣ في مالطية حاضرة ارمينية الصغرى، على ضفة الفرات. وهي تعدّ من اعظم قواعد تلك البلاد على رغم ما حل بها من نوائب الزمان. وكانت حافلة بالنصارى يأتونها لما يجدون فيها من اسباب المعاش. قد اشتهر فيها قبل ابن العبري، ديونيسيوس برصليبي † سنة ١١٧١ ومخايل الملقب بالكبير المتوفى ١٠٩٩.

اما لقبه « بابن العبري » فلا يدل على كون اصله يهودياً كما ادعاه الكاتب ريْث وعنه اخذ العلامة بطرس البستاني في معجمه دائرة المعارف. لانه بعد التنقيب عن هذه القضية،

١) المشرق ١ (١٨٩٨) : ص ٢٨٩ ؛ ٣٦٥ ؛ ٤١٣ ؛ ٤٤٩ ؛ ٥٠٥ ؛ ٥٥٥ ؛ ٦٠٥

وجد في نسخة خطية من اعمال ابن العبري في باريس انه كان ابن اخي البطريرك ميخايل الكبير المار ذكره ؛ فلو كان هذا البطريرك حديث العهد في النصرانية ، لما كان انتخب اهل ملته بطريركا عملا بقوانين الكنيسة الشرقية. وقد دعي ابن العبري بالمعمودية يوحنا كما هو ظاهر من التاريخ السرياني المحفور على ضريحه في دير مار متى. واتخذ في الكهنوت اسم غريغوريوس. ولقب « بابي الفرج » تيمناً بهذا الاسم لا غير. وقد ترهب وهو حديث السن .

كان والده اهرون من وجهاء قومه ، يحسن الدروس الطبية ويتعاطى العلوم الفلسفية . فاخذ يلقن ابنه يوحنا مبادئ المعارف البشرية ، وهو بعد حديث السن. وكان الولد ذكياً ذا قريحة وقادة . فما لبث ان احكم هذه الدروس الاولية حتى دفعه ابوه الى ابرع اساتذة بلده. فاقبل الشاب على درس اللغات الثلاث: السريانية واليونانية والعربية. وما عتم ان أتقنها جيداً وتضلع من آدابها ، وجعل يكتب فيها بسهولة غريبة ، كما تدل عليه تآليفه القيمة العديدة. وقد ترجم الى العربية كثيراً من الكتب اليونانية للفلاسفة الاقدمين كارسطو وغيره . ثم انكب على درس الفلسفة واللاهوت وامتاز فيهما على اهل عصره من الشرقيين كما تنطق به مآثره العلمية في هذين العلمين الساميين . وزاد عليهما درس الطب أخذاً عن ابيه النطاسي البارع وعن غيره من العلماء .

ولما دهم ملاطية هولاغو ملك المغول ، سنة ١٢٤٣ جاء به ابوه أهرون الى انطاكية وكانت بعد بيد الافرنج يتولاها ملوكهم منذ السنة ١٠٩٨ « فكان الشاب يوحنا يتردد على علماء البلد ، يرتشف منهم الآداب والمعارف التي كانت تزيده زهداً في الدنيا . فخرج الى جبل بجوار انطاكية واعتزل في مغارة متفرغاً لاعمال التقوى والعبادة والدرس . ولما انتشر صيته وعلم به البطريرك اغناطيوس ، أحب ان يزوره في منسكه وينشطه على اتمام قصده . وظل ملازماً طريقة النسك سنة فقط . ثم جاء الى طرابلس لبنان قاصداً يعقوب احد مشاهير النساطرة ، استاذ العلوم الادبية والرياضية والطبية ، فغرف من هذا الينبوع ما كان فاته من تلك العلوم . ورقاه البطريرك اغناطيوس سابا درجة الاسقفية . وفي السنة ١٢٧٦ نصبه البطريرك اغناطيوس الثالث مفرياناً على المشرق . والمفريان لفظة سريانية من فعل فرَّا فا وأثمر واسم الفاعل مَفريانا اي المولِّد والمثمر . كان البطاركة اليعاقبة يقلدون هذا اللقب نائبهم في بلاد العراق وبابل وما بين النهرين ليقوم بامور ملتهم ويدافع عن حقوقهم عند ملوك العجم . واولُ وضع هذه الرتبة كان في القرن السادس بعهد يوستينيانوس الملك ولم تزل شائعة عند اليعاقبة الى يومنا . وللمفريان رئاسة على الاساقفة وعلى رؤساء الاساقفة وله السلطان كالسيد البطريرك وربما دعي باسم الجاثليق اي الاسقف العام[١] ÷ (Primat) .

تسلم ابن العبري كرسيه في تكريت حيث نهض باعباء مقامه السامي نيفاً وعشرين

١) المشرق ١ (١٨٩٨) : ص ٣٦٨

الجسدي الذي يجب فعله في المحابس . الثاني : في العمل الروحي الذي تجب ممارسته في القلالي . الثالث : في معنى راحة الحمامة بما يعزي الانسان الروحي ويرقى به الى المقام الملكي ويلج به السحابة الالهية . الرابع : في ترقي المؤلف بالعلوم وفي ايضاح بعض قضايا .

وهذه الانواع الاربعة تمثلها اربعة ادوار حياة نوح البار . الاول خدمته البارة التي ارضى بها الله تعالى . الثاني ولوجه الفلك ونجاته بها من الطوفان . الثالث خروجه منها اذ بشّرته الحمامة بتناقص المياه عن وجه الارض . الرابع الأوحية التي كانت اليه والعهد الذي عُقد معه ونصبه الكرمة وسكره بعصير ابنتها .

وقد كانت حمامة نوح البار عجماء مائتة اما حمامتنا فهي ناطقة حيّة ، تهب الناطقين نطقًا والاحياء حياةً . تطير طيرانًا ولا تتزحزح قيد شعرة عن وكنها الذي يسمو بيعة الابكار . تجوب الاقطار والامصار وهي في مقرّها المختار . لا صورة لها وتحوي جميع الصور . المشرق مقرّهـا والمغرب ملآن منها . النور قوتها ومن يتخذ جناحيها يتوقّد فمه نارًا . وهي تستطيع اسرار مرضى الغرام وأحاجي جرحى الهيام وتروي غليله . فصوتها يدوي في جميع الآذان وقليلون الذين يسمعونه من بني الانسان . تدعو الجميع باسمائهم فيجيبها واحد من الف . نوحها اكثر عذوبة من نغم الارغن فيصدق فيهـا قول الشاعر :

حمامتي حيّةٌ صفيقةٌ[١] في صفةٍ لثها سليقهْ[٢]
لا عيبَ في ناقضٍ صفاتها لانها روحيّةٌ حقيقهْ

---

١) الصفيق الوقح ، يقال وجه صفيق اي لا حياة فيه .
٢) الطبيعة .

الباب الاول

في العمل الجسدي الذي يجب فعله في المحابس وفيه عشرة فصول

الفصل الاول : في سبب هجر الانسان العالم

يهجر الانسان العالم وينكب عن ملاذه لسببين احدهما حقيقي خاص وهو حركة الهيئة تنبعث في قلب الانسان فتوقظه من سباته للتأمل ليلاً ونهاراً في العذاب المحتوم على الخطأة في العالم الآتي والسرور الدائم الذي وُعد به الصديقو. في ملكوت الله وهذا ما أقبل برهط من اماكن عديدة الى معترك النسك ن ثانيهما مجازي استعاري وهو محبة المجد الفارغ الذي يدفع الانسان الى اقتحام الاعمال النسكية احرازاً له للمجد حتى ان الاغنياء يضحّون في سبيل اكتسابه ما جلَّ من غناهم . وهذا السبب يقرب من ان يكون عاماً ، فلا ينبغي ان يُنبذ تماماً وان كان مزدرًى بـه . لانه قد يتّفق ان يسقط البذار احياناً في الارض عن غير عمد فيعطي غلاتٍ وفيرةً ؛ على حين ان بذاراً سواه لا يغلّ شيئاً مع ما يبذل في جانبه من العناية .

الفصل الثاني : في التوبة

فور ما يدرك الانسان مضرّة الخطيئة ، يندم على ما صدر منه من الزلل ويُنكب عما تمنّى لاجله قاصداً ألّا يزلّ بعد . فالتوبة تقبل أيّانَ وُرِسَتْ . وحسبك مصداقاً لذلك توبة آل نينوى وسمعان رأس الرسل . ومن الخطايا ما يصدر عن النطق مثل الكبرياء والمجد الفارغ والحسد والثلب . ومنها مايصدر عن الحدَّة مثل الغضب والخطف والحقد . ومنها ما يصدر عن الشهوة كالنهم والشراهة والشَّبَق . وخطيئة العالم كبيرةً ولو صَغيرةً . فيجب على من يتوب ان يسأل الله الغفران بزفراتٍ خاشعة وعيون دامعة معترفاً بخطاياه مثل اولئك الذين اعتمدوا من يوحنا في نهر الاردن واولئك الذين جاءوا الرسل وآمنوا معترفين بخطاياهم عملاً بقول بطرس السليح : اعترفوا بخطاياكم الواحد للآخر . ويوحنا يهتف قائلاً : ان اعترفنا بخطايانا فالمسيح امين وعادل وهو يغفر لنا اياها .

الفصل الثالث : في الزهد

حالما ترسخ قدم التوبة في نفس الانسان ويرى ان المقتنيات العالميّة الزائدة عن الحاجة الضرورية ، يتطلّبها الالم الاثيم ، حينذاك يرذلها زاهدًا فيها . وطبقات الزهّاد ثلاث : دنيا . ووسطى . وعليا . فالدنيا تختص بالذين يتركون التنعم خوفًا من العذاب المقبل . والوسطى تختص بالذين يكرهون السرور الزمني حبًا بالسرور الابدي . والعليا تختص بن يطلبون الجوّاد الكريم وحده ، معرضين عما سواه ؛ فهؤلاء يجلّهم العلماء ويمدحونهم . . والزهد يكون بالدرهم والقوت والمسكن والامتعة . امّا بالدرهم فيقوم بنبذه تمامًا . . والزهد بالكسوة يقوم بإتشاح اثواب الصوف او الشعر المعتدلة الطول مع شدّ الوسط بالسيور ، ويباح ان يزاد على ذلك الرداء والقبعة والحذاء . والزهد بالقوت يكون بان تذخر لعام او شهر او يوم خبز الحنطة او الشعير او الدخن وتأدمه بالسمن او الزيت او الماء المالح . والزهد بالمسكن يتمّ بان يقطن الزاهد قِلّية صغيرة او كهفًا حقيرًا ونحوه . او ان يبقى لا موضع له معلومًا على مثال ربنا فيقعد ويرقد في أيّة زاوية تهيأت له . امّا الزهد بالآنية والامتعة فيقوم بان تستعمل ما كان خزفًا او خشبًا او يقطينًا .

الفصل الرابع : في التواضع

كثيرون يتزهّدون عملًا ، عن غير قصد فنقول : ان علامة الزهد الحقيقية هي التواضع وعلامة التواضع الطاعة . وللتواضع علامات اخرى مثل ان يجلس الكبير مرتاحًا دون الصغير وقت الصلاة ونحوها . وان يحادث المساكين والبائسين ويشاركهم في اتعابهم متى دعوه . ومثل ان يتشح الأطمار بدون حياء . قال مار اسحق : ان التواضع يغفر خطايا كثيرة بمعزل عن الاعمال . وقال أبوني رئيس الدير : ان الكبرياء وحدها بمعزل عن سائر الشرور اسقطت الشيطان من العلاء . والتواضع وحده بمعزل عن جميع الخيور ، يُصعد الى السماء . ومتى مُني المرء بداء الكبرياء ، يشفى بمعرفته انّ اوله نطفة واخره جيفة . والانسان العاقل يقول : كيف يتكبر من ظهر في دوريْن من قذر الأبوال ؟

الفصل الخامس : في الصبر

مثلما يستلزم التواضع الطاعة تستلزم الطاعة الصبر على الشدة . والشدة إما زمنيّة واما ابديّة فالزمنية هي علة الراحة الابدية والراحة الزمنية هي علة الشدة الابدية . والشدائد الواجب احتمالها هي الجهاد لكبح شهوة البطن ولذة الجسد واعمال النسك الاختياريّة والتجارب غير الاراديّة التي تعرض بترك الله تعالى للمتوحد احياناً ، امتحاناً له كمصادقة الاشرار الذين لا إله لهم . والسقوط من حالق واحتقار الرؤساء والاخوة المبتدئين اعتباطاً بما يوقعهم في امراض صعبة كالكسل والملل وبلبلة العقل واليأس وعمى القلب وحرمان الغوث البشري . والمبتلون بمثل هذه الاوصاب ، يداوون بتذكر كلمة الرب . من يصبر الى المنتهى يخلص (متى ١٠ : ٢٢) . ويغذون بكلام الاباء على فضيلة الصبر . ونقول باختصار : من لا يشتعل حباً لله تعالى يشبه لَبِنَةً وُضعت في اساس على شاطئ نهر فلا تثبت ساعةً واحدةً على انها اذا أُنضجت طبخاً تثبت ثبات الصخر .

الفصل السادس : في محبة الاخوة

علامة الصبر الحقيقي هي محبة الاخوة ، محبةً لا غش فيها ، مقرونة ببشاشة المحيا وهشاشة القلب . فالمحب الصادق يحب طبعاً اذ يجد محبَّه لذةً بمسامرته وعلة هذه اللذة الجمال الخارج او الباطن وقربى المتحابّين الجفية . والاكثرون يحبون البسيطي الهيئة والمضبوطي الهوى . والانسان يحب من ينفعه نفعاً ما ؟ او يرشده الى ربح ما روحي ، مثل معلم التوراية الحقيقية والمرشد الى العمل الافضل . ويحب ذو العقل والعفاف والقنوع والحسن المعاشرة . ومن المحبين من يحتسب حبيبه مثل قريبه فيعطيه مما يربح . ومنهم من يبذل نفسه للضيف بدل محبه . والمحب يتضايق مما اذا لم يُنل محبه حاجاته وكمالياته . فيعطيه بغيته قبل ان يسأله ويقمع مبغضيه ويغفر ذنوبه ويستر عيوبه ويشهر مزاياه الحسنة ولايثقل عليه ولا يصغي الى اقاصيص جاده في حقه ولا يترصده من شقٍ او يترقبه من فلقٍ . ومن لا يعتني بالمؤمنين ابناء ملته فهو شرٌ من الغير المؤمنين على ما قال بولس المغبوط .

الفصل السابع : في عثرات اللسان

يجب ان نتكلم الان في عثرات اللسان حذار ان لا يُنكب عنها من يدري مضارّها فنقول :

١ً – الكلام الباطل

وهو ما لا يبرّر اذا نطق به ولا يؤثم اذا أبقي عليه وعلته غالباً معتلة وهو يداوى بالاخلاد الى السكينة وحبس اللسان عن الكلام حتى ان بعض الناس قد التقموا حجراً أملس حذر ان يتكلّموا فيتكلّموا![1]

٢ً – الثرثرة

وهي كثرة الكلام وشقشقة اللسان وسببها اندفاع الطبع الى الثرثرة وحب الاسترسال في الاقاصيص العتيقة . وهذا الداء يعالج بعلاج الداء المتقدم .

٣ً – الكلام المؤثم خفية

وهو وصف مجد الاشرار وبطشهم وغناهم لان السذج متى سمعوا ذلك تتبلبل ضمائرهم وينقص ايمانهم وهذا المرض يداوى اصحابه بتذكيرهم القول الكريم : آخرة الاشرار للهلاك في العالمين معاً .

٤ً – الخصام

وهو اتباع الارادة وعدم الطاعة وسببه الكبرياء التي تحمل المرء على تعظيم نفسه وتدفعه الى البغضة والازدراء برفقائه وهذا المرض يداوى بقمع هذين الالمين السمجين .

٥ً – المماحكة

وهي حرب بالكلام تسعر نارها من ظالم ومظلوم فيداوى ذاك بتذكيره أن لا يقترف احداً . وهذا بتذكيره بالقول الكريم : دَعْ ثوبك لمن يسالك صدرتك . (نوما ٦:٢٧)

٦ً – الشتم

وله علتان الاولى تعمُّد المرء حزن المشتوم الثانية العادة الشريرة المتولدة من

---

١) يجرحوا

معاشرة الجهال . وهذا الداء يداوى بتذكر النطق الكريم : من قال لاخيه راقا[1] يدان من الجماعة . ومن قال له يا أحمق يشجب في جهنم النار (متى ٥: ٢٢) . فمن تُرِّف بزلّةٍ فلينسبها الى نفسهِ لا الى مقترفهِ وهكذا ينجو من بغضهِ .

٧ً – التجديف

وهو تعريب الشيء عن الله تعالى وذلك يكون بان يريد المرء الشرّ للآخرين . والعقلاء متى سمعوا القول الكريم : أن باركوا ولاتلعنوا (رو ١٢: ١٤) لا يجسرون ان يجدفوا أو يلعنوا .

٨ً – الغناء

وهو ما يصاغ من الاغاني التي تهيج في المرء حركات الزنا . فلا يدعَ اذا رُذلت . والمبتلى بهذا الداء الوبيل يحال الى انشاد التراتيل الادبيّة فيشفى .

٩ً – الهزل

ويكون بالكلام المضحك الذي يميت القلب ويعيب كرامة الانسان وعلته في عرف العقلاء دالّة تماثل السموم التي تؤذي الزروع . وهذا الداء يداوى بتذكر الاية الكريمة : الويل لكم ايها الضاحكون الآن فانكم ستبكون وتنوحون . (لو ٦: ٢٥)

١٠ً – السخرية

وهي اظهار عيوب الناس المضحكة استخفافاً بهم واحتقاراً لهم . وهذا المرض يداوى بتذكر القول الكريم : لا تحتقروا احداً من هؤلاء الصغار .

١١ – التعيير والاستهزاء

وهما كشف العيوب عن بغض وحقد . وهذا الداء يداوى بترديد القول النبويّ : طوبى للرجل الذي لم يجلس في مجلس المستهزئين . (مزمور ١: ١)

١٢ – الكذب

وهو ان يقال عن الغير الموجود كانه موجود وبالعكس . وهذا الداء يداوى بتذكر القول الكريم : انك تبيد الناطقين بالكذب . واعلم انه متى دعت المنافع النفسية فالكذب لا يؤثم كما جرى لراحاب التي اخفت الجواسيس

---

[1] كلمة ارامية معناها : « رأس فارس »

وقالت : ليسوا عندي . فيمكن اذن القول انه يستطاع استعمال الكذب انما مع الاحتراس والخوف (يريد بالكذب هنا التقييد العقلي كما يفهم من التمثيل).

١٣ – الثالب والنَّيْبة

وهما ان يبوح المرء لآخر بنقائص الغير على غرَّة من المثاوب وسبب ذلك غالبًا خوف الثالب من ان يُظنَّ به سوءا اذا سكت عن المثاوب . فيثلب المرء قريبهُ عن عجب وشفقة قائلًا : اني اعجب بسقوط فلان في خطيئة الفجور وهو صاحب العقل الصائب . وأحزن لفلان كيف نشبت رجله في فخ السرقة وهو ذو الفكر الثاقب . وهذا الداء يداوى بأن يعدّد المرء فضائل من يزلُّ مرددًا قول الشاعر : كفى المرءَ نبلًا ان تُعدَّ معائبه .

١٤ – النميمة

وهي تذكير المرء بما فُعل من الشرّ بحقهِ وسببها شرُّ النامّ او صلاح المنموم به فان كان السامع برًا فلا يصدّق النامّ ولكنّه يزدري به ويوبّخه ولا يباحثه مليًا فيُذبرَ خجلًا وَجِلًا .

١٥ – الشفاه المتملّقة

ذو الشفتين المتملقتين يمدح كلًا من المتخاصمين حاضرًا ويذمّه غائبًا فداؤه هذا يداوى بتذكّر قول الكتاب الكريم : ان الله تعالى يقطع الشفاهَ المتملّقة (مز ١١ : ٤) .

١٦ – المديح

ان المادح يسقط في اربعة شرور الكذب اذ يسمّي المرَّ حلوًا والحلوَ مرًّا والرياء حينما يطنب في المدح والضلالة اذ يقول ما لا يعرفه حقًّا الشجب اذ يفرح للاثم . وان الممدوح يقع في مضرّتين العُجب والكبرياء . وكلاهما يداويان بلزوم الصمت .

١٧ – سذاجة الكلام

ذلك كمن يقول : لولا فلان لاكلني الذئب . وقد كان ينبغي ان يقول : لو لم يُتِح اللهُ تعالى لي فلانًا معينًا لاكلني الذئب .

١٨ – التنقيب الباطل

ذلك كمن يبحث عمّا لا تفيد معرفته شيئاً . او عمّا لا يضرّ عدم معرفته شيئاً . كأن يبحث المرء عن اسم ابي ملكيصادق . ونقول : ان المبتدئ يتنقّى ببوتقة المحابس من المعائب المقدّم ذكرها ، كما تتنقّى الفضّة من الخَبَث بكور الامتحان .

الفصل الثامن : في رجوع المبتدئ القهقرى

ان المبتدئ بعد ان يكون وفّى المحابس حقّها على قدر ما تطيق حالته ، يعلم أن قد دنا زمن ملازمته القلّية . فيأخذ القنوط بمجامع قلبه ويشرع في مناجاة نفسه قائلًا : لا قِبَلَ لي على الاحتباس الدائم لان ذلك ممّا يفوق طاقتي ؛ فلا يجدر بي ان اقتحمه ، وربّما لا اطيق ذلك فاغادر الحبسة وأمسي اضحوكة للابالس ومشهدًا للملئكة والبشر، فخيرٌ لي ان اعود الى العالم واتمّل ضمن معتركه ما يُطلب مني من البرّ . ألعلّ الابرار الاولين ابرهيم واسحق ويعقوب لم يقتنوا أماء وابناء وبنات ومقتنيات شتّى ومع ذلك فقد احسنوا خدمتهم لله تعالى اكثر من المتوحّدين . وموسى رئيس الانبياء خاطب الله تعالى وجهاً لوجه . وداود الملك والنبيّ لُقّب قلب الرب . وبطرس رئيس الرسل كان ذا حماة وقد أُوتي على مفاتيح ملكوت السماء . وكثيرون كانوا أصحاب حوانيت فصاروا ابرارًا ، مثل فريسقيلا واقلوس ، والانبا مقريس أُرسل الى امرأتين في المدينة ليتعلم منهما البرارة . وقد خُصّ قوله تعالى : انموا واكثروا واملأوا الارض بحالة الزواج لا بالبتولية على ما قال بولس المغبوط . امّا البتولية فليس عندي فيها امر من الله ، لكني اشير بها مشورةً . بمثل هذه يكثر المبتدئ التأمل فيتغلّب فيه ميلُ الانقلاب الى العالم فينكص عن التدبُر العقلي ، جانحًا الى التدبّر الهيولي ، اذا لم يسعَد بطبيب نطاسيّ يفتح له عينيه .

الفصل التاسع : في تسديد خطى المبتدىء

يجب ، ايَّ وجوب ، على مرشد المبتدئ الذي يعرّج على الجنبين ان يناجيهُ قائلًا : بنيَّ أترغب ان يكون حظُّك حظَّ امرأة لوط التي عادت نصبَ ملحٍ فورَ ما التفتت الى ورائها . ألم تسمع قول الرب ؟ : ما من احد يضع يده

على المحراث ويلتفت الى ورائه فيصلح لملكوت الله (لوقا ٩:٦٢) . حقًّا يا بنيَّ انه ليأخذني العجب منك كيف تساوي نفسك بالآباء الاولين والانبياء الالهيين والرسل القديسين أيستطيع الذباب ان يضاهي الاسد دفاعاً أو العلّيق يقدر ان يضارع الارز ارتفاعاً ؟ بنيَّ لا تطغ ، بل اعلم ان حالة الزواج افضل من البتولية الكاذبة ، ذات الحياتين التي تبغي خدمة الله تعالى والعالم معاً ، لكنها اي حالة الزواج ليست افضل من البتولية الصادقة التي لا تتقسّم بين المسيح له المجد وبين الملك الارضي ولا تتقيَّد بعهد الحياتين ، لكنّها تقصرُ حبَّها عليه تعالى وهي ذات حياة جميلة وهيام سامٍ ، خفيفة وضيئة لا تماس الهيولى واللحم وما احسن ما قيل : ان المتزوج مكبَّل اليدين ومقيَّد الرجلين والغير المتزوج موثَق اليدين فقط امَّا المتوحد حقًّا فيرتقي وهو على الارض الى السما بجناحيه الروحيين . ونقول : ان العالميَّ لا يكاد يكفي حاجات ذويه من الوجوه الجائزة فسدًّا لهذا الخلل يندفع الى الخطف والسرقة . بنيَّ من يمكنه ان يشبع مطامع الامرأة الاشعبيَّة ؟ بل بعلها ذاته يعاف الحياة بسببها . بنيَّ ان اسباب الخطيئة كثيرة كالحسد والحقد والبغض والشهوة ومحبة التبرُّج وعشق الفضَّة والشره والبخل وفحص احكام الله تعالى غير المدركة ؛ في كون مبغضيه يشبعون ومحبيه يجوعون ، وامور اخرى مثل هذه يتنكَّبها المختارون . بمثل هذه الاقوال يبني المبتدئ ويؤخذ بيده فيعود الى حالته الاولى الصالحة .

الفصل العاشر : في علامات الاستقامة

لسير المبتدئ الحسن علامات وهي المشي بهدوءٍ ورصانة والتكلم بصوتٍ خافت والمخاطبة العذبة والنظر العفيف والطَّرْفُ الكسير والسرور الباطني واللباس الرثُّ والاقتيات باليسير والحب الكامل ومطالعة المزامير بتنغُّم . ومحبة الغرباء ونقاوة الافكار . فكلُّ اخٍ يتَّصف بهذه الصفات فهو مستقيم ويجاهد بفرحٍ ويصلي لكي يتوب مبغضهُ ويصغي الى كلام الحكمة ولا يَنْشدِهِ لشيءٍ لم يَرَه او أمرٍ لم يُخبر عنه قبلًا . ولا يسأل مَن يلقاه لاي سببٍ يسير . ولا يقصّ الاقاصيص المضحكة ولا يحبُّ التبرُّج مثل الامرأة ولا يَرْنُو الى لباسه متمايلًا ذات اليمين وذات اليسار . ولا يشبك اصابعهُ ولا يلعب بشعر لحيته أو يتبسّم

الا خفيةً . ومتى جاع لا يملأ الفضاء صياحاً ومتى أُوقظ لا يتثاءب ولا يخرج ريقهُ من بين اسنانه ولا يحرك يده عند الكلام . ويجلس في المقام الادنى ولا يسامر الحكّام . من مثل هذه المناقب يعرف المبتدئ المستقيم الذي أنما أمّ المحابس إحرازًا لها (للمناقب) .

الباب الثاني

في العمل الروحي الواجب فعله في القلالي وفيه عشرة فصول

الفصل الاول : في قوانين السكن في القلّية

يجب ان يكون الجلوس في القلّية بافراز وليس دائماً كما يحتبس الكثيرون غير متعمدين أمرًا ما مع ان الغرض المبتغى من ذلك هو توقُّعُ نعمة الله تعالى التي تنير العقل ومشاهـدة الروحيين بطبائعهم والائتلاف معهم وغير ذلك من الامور العظيمة .

امّا قوانين سكنى القلالي فهي : الصمت والاستحرار الحقيقي في الطلب والتأمل والمطالعة والهذيذ الدائم وتلاوة الصلوات المفروضة باوقات معلومة والسهر والنوح والصوم وعمل اليد والسياحـة وحفظ القلب من الآلام الشريرة وهي الضجر ، النهم ، الشبق ، الغضب ، الحقد ، الحسد ، الملذات ، المجد الباطل ، الرياء ، الكبرياء ، الفخر ، التوبيخ . فمتى تنقّى القلب من هذه الشرور ، لزم عن ذلك أن يتزيّن بأنواع المحاسن .

هذا والمرضى ، فضلًا عمّا يُحتاط لهم من الاسباب المؤذية ، يجب ان يُزودوا بالمقوّيات وهي محبّة العلم والايمان والشكر والرجاء ومخافـة الله والمسكنة والاتكال ونقاوة الافكار وتذكر الموت . فهذه هي تدابير الانقياء القلوب الذين يعاينون الله وها نحن نوضح كلًا منها في كلامنا التالي .

الفصل الثاني : في الصمت

لقد أعظم العقلاء الصمت واكبروه دون سائر الفضائل . قال فلديس السعيد : سألت يوماً الانبا سرمطا فقلت له : اني لا أعمل شيئاً مما يعمله الرهبان

بل آكل وانام قلق البال . فاجابني : اجلس في قلايتك واعمل ما تستطيع ولا تخف وانا واثق أنك بذلك تتمجّد مثل انطونيوس .

والصمت كثير الفوائد واعظم هذه الفوائد اللذة الروحيّة التي يكتسبها العقل بمعرفة الطبع الالهي والنجاة من الافكار العالميّة التي تموّج الخدمة الروحيّة والافلات من ثلب الاصحاب وملازمة الائمة والمداهنة والابتعاد عن مشاهدة المنكرات والتنكيب عن سمع المستقبحات التي تتمكن من الطبع بسهولة وهيهات ان تعود تفارقه لان المرء يقتبس كثيراً من الشر اليسير وقليلاً من الفضل الغزير ذلك لمطابقة الناس المتعنتين كما قيل : ان حيوان البرّ لا يُضرب بالعصا وأيائلَ الجبال لا تنام امام الجزاز ؛ لان الوحش اذا دنا من النسور تزعوهُ جلده والنسر الذي يسكن القرى يعميه الدخان .

وللمسامرة فوائد جمّة منها التعلّم ومساعدة الضعفاء والدرس والتخرّج واحتمال مضرّة اهل الغضب والحُنكة التي يكسبها الاختبار . فهذه الفوائد ، بعد ان يكتسبها المبتدئ في المحابس التي تمحّصه تمحيص البوتقة للذهب ، يجب ان يختار الصمت والاحتباس في القليّة .

يليق بالحبيس ان يتغلّب على حبّ المسامرة ويعتاد ملازمة القليّة وان لا يلقى احداً ما خلا ايام الآحاد التي يتناول فيها الاسرار . ولا يدع احداً يطأ ارض قليته خارجاً عن الضرورة ؛ لان كثيرين ابتدأوا بالاعمال الشاقة وانتهوا بحياة ملومة لمسامرتهم اهل العالم ومعاطاتهم مع النساء المثريات وتعليمهم اياهن ؛ مدّعين علم المزمعات ومعرفة الخفيَّات ، حتى أمست قلاليهم محفلاً لاهل المدن والقرى ، فهَوَوا من سماء الحياة المنيرة الى حضيض الاعمال المظلمة .

الفصل الثالث : في العبادة الرباعيّة الانواع

وهي الدعاء . والذكر . والقراءة . والتأمل

الدعاء — يقوم (بعد ما يغفر المرء لمن اساء اليه) بان يلتفت الى الشرق رافعاً يديه ويطرق الى الارض خجلاً من ربه ويجأر بالدعاء . قائلاً تكراراً : « ارحمني اللهمّ انا الخاطئ . ربي اشفق عليّ . سيدي هبني ما يلائمني » . وهكذا يمنحه الله تعالى ما لم يخطر له طلبه .

ذكر الله تعالى — يقوم بتكرير الآي العشر الواردة في تسبحة الفتيان[١] السعداء. ستٌ من قوله : مبارك انت. واربع من قوله : باركوه. وتكرّر هذه الآي ثلاثاً او سباعاً او اربعين مجسبا يسع الزمان والمكان. ومتى أخذت النفس تلذُ حقاً بقراءة العهد الجديد، فعوضاً عن التخيُّلات الجسدية، يتبجّن المذيذ الروحيُّ في العقل، فيبلغ رويداً رويداً الى الطهارة. وينبغي ان يتلى كلَّ يوم ستة فصول فصلٌ من كلٍ من بشارات الانجيل المقدس واعمال الرسل ورسائل بولس المغبوط، حيث يبتدئ القارئ القراءة برسم الصليب الذي هو علامة ربنا ويسجد ثلاثاً عند نهاية كل فصل. ثم يضع الكتاب على المقرإ.

ومن لا يعرف القراءة عليه بالتأمل في اعمال الله تعالى. وانواع التأمل ثلاثة الاول ان يتأمل الانسان خطاياه، لان الانسان ان لم يهذب نفسه اولاً فلا يبنيها. الثاني ان يتأمل المرء بعدالة احكام الله تعالى والعذاب المعدّ للمنافقين، فتقوى حينذاك مخافة الله في قلبه. الثالث ان يلهج بذكر فيضان مراحم الله والخيرات المعدَّة للاخيار، فيغزر الشكر في فيه له سبحانه وتعالى فيصبح كانه في عالم الروح يسامر ملائكة النور وينادم نفوس الابرار.

الفصل الرابع : في الصلاة وترتيب الاوقات

اذا كان موسى العظيم لم يستطع ان يدنو من العليقة حتى خلع نعليه من رجليه ونبذ كل ما يخرج عن الحسّ فكيف يمكن العقل ان يصلي اذا لم يُصن من التشتت. نعم انه يصعب جمع العقل اولاً لكنه، بعد الارتياض الحقيقي وذوقه عذوبة الصلاة، يتهيأ جمه (جمع الفكر) بأوفر سهولة، فيقف متذهلاً بالله تعالى. والصلاة النقية لا تقوم بكثرة الكلام كقوله تعالى : « متى صليتم لا تكونوا مهذارين مثل الوثنيين الذين يظنون انه بكثرة الكلام يستجاب لهم. (متى ٦ : ٧)

١.١ الصلاة الواجبة فهي ان يقف المرء ووجهه الى الشرق، متكتف اليدين، مجموع العقل ويتلو ثلاثاً صلاة : قدوس الله الخ وفي كل مرة يسجد راساً

١) آل بيت حنينا

الصليب على وجهه . ثم يقول ثلاثاً وهو يسجد : ربي ارحمني . ثم يقول : المجد لك يا ربنا المجد لك يا رجانا الابدي . ثم ينهض ويتلو صلاة : ابانا الذي في السماوات مختتماً بها الصلاة .

اما الصلوات الواجبة فهي سبع الاولى صلاة الصبح عند مشرق الشمس ويلحق بها اربعة فصول من الانجيل ويصرف الى الساعة الثالثة بالتضرع والتأمل. ثم تتلى الصلاة الثانية وهي صلاة الساعة الثالثة وما يبقى من بعد الساعة الثالثة يصرف بعمل اليد ان وجد عمل والّا فبالتأمل . ثم تتلى الصلاة الثالثة[1] وهي صلاة نصف النهار وتعقبها القيلولة التي تعين على السهر ليلا وتلاشي حرب شيطان الكسل الذي يستميل المتوحد الى النظر في الشمس ليرى اذا كانت ثابتة او متحركة . ثم يقضي وقته بعمل اليد الى ان يبلغ وقت تلاوة الصلاة الرابعة وهي صلاة الساعة التاسعة .ويقرأ الفصول الثلاثة الباقية مستحرًا بالطلب حتى المغيب . ثم يصلي الصلاة الخامسة وهي صلاة المساء . ويظلّ متأملاً الى الساعة الثانية ليلًا . ثم يصلي الصلاة السادسة وهي صلاة الستار ويرقد حتى نصف الليل حيث ينهض يصلي الصلاة السابعة فاذا غلب عليه النعاس فليخطف قليلًا من النوم وهو جالس حتى نهاية الساعة العاشرة ليلًا ولا يعود يرقد بل يصرف ما بقي من الليل في التأمل بالله تعالى .

الفصل الخامس : في التسبيح والسهر

قبل كل من صلوات النهار الاربع وصلاة المساء ، فليتلُ الراهب تسبحتين وقبل الستار تسبحة واحدة وقبل صلاة الليل اربع تسبحات اما السهر فيطول ويقصر بحسب طاقة الراهب فان كثيرين يسهرون ثلث الليل ساعتين من اوله وساعتين من آخره وينامون ثلثيه الباقيين . وآخرون يسهرون نصف الليل وينامون نصفه الآخر . اما الكاملون ، مثل الانبا ارسانيوس ، فيسهرون الليل كله . ومما يعين على السهر قلة الاكل والعمل والقيلولة ولذلك يلزم ان يحمّل الجسد طاقته من الاعمال ؛ لاننا مأمورون بقتل الآلام لا بقتل الحياة اذن من توهيه الاعمال فليرح جسده وقواه ثم يعود الى العمل .

١) هكذا كان نظام الصلوات قديمًا على ما يظهر .

بعض الرهبان يركعون اربعاً بعد صلاة الستار وبعضهم يسجدون اربعين بعد صلاة الصبح . امّا التسبيح فيجب ان يقترن بالبكاء. وسبب البكاء انما يكون تواضع القلب واشتعال النفس بمحبة الله . ان احد الرهبان رأى حلماً كأنه يسبّح قدام داود بن يسّى ، فقال له داود : اني لمتعجب بتسبيحك وقد تعلمت ذلك انا ، انما لم اتعلم كيف انك تسبح وتبكي معاً . والبكاء لا يمكن ان يصدر الا عن الفهم ولهذا قيل: يجب ان نقلّل شيئاً من التسبيح ولتقف النفس المستنيرة قليلاً عند التأمل .

هذا ويوجد رهبان يتمّون التسابيح كلها في سنة واحدة وغيرهم يكملها في شهر . امّـا الضعفاء فليس عن زيادة الفهم يقللون من التسبيح ، بل ذلك منهم جرياً مع شيطان الكسل الذي يحاربهم فيكتفون بتلاوة مزمور: سبحوا الرب يا جميع الشعوب وامدحوه يا سائر الامم (مزمور ١١٦ : ١) متعللين بأن الربّ تعالى ينظر الى استعداد القلب ، لا الى كمّيّة التسبيح ، فيجازي فعلة الساعة الحادية عشرة ، جزاء فعلة الساعة الاولى الذين حملوا ثقل النهار وحرّه . وفريق من الرهبان غير الحبيرين يعتبرون من الاعمال تقدمة القربان فقط . ولا يعتدّون بكلام النوافير مثل قوله : كلما اجتمعتم باسمي . وكقوله : لك أحني عبيدك رؤوسهم الى غير ذلك فهذا الفريق ليس باهل للاجتماع .

الفصل السادس : في الصوم

اذا كانت كثرة المآكل تتخم وبأبخرتها تُظلم عيني النفس حتى لا تدعها تنظر الامور الروحيّة ، فالامساك عن بعضها ينير العقل فيضحي اهلاً لتصوُّر الروحيات.

للصوم ثلاث درجات : عامّة . وخاصّة . وأخصّ . فالعـامة ان لا يأكل المرء او يشرب مدى النهار ، بحسب عوائد الشرقيين . او ان لا يأكل نهاراً من الحيوانات وزوائدها بحسب عوائد الغربيين . فاولئك يقتاتون بالبقول مساء وهؤلاء نهاراً . ولهذا النوع من الصوم قوانين ؛ مثل ان يقصد المرء الصوم من الصباح لان كثيرين لا يأكلون اتفاقاً فلا يعدّون صائمين . ويلزم ان يحذر الصائم ان يسقط في حلقومه ايّ مأكلٍ او مشربٍ كان ، لئلا يضطرّ الى قيئه ، اللّهم الا في المرض .

ودرجة الصوم خاصة يتفرد بها الرهبان الذين فضلًا عن صوم البطن يصومون عن الحركات المزنّة . ولهذا الصوم تواعد مثل حجب البصر عن المناظر السمجة وضبط اللسان عن كلام الاثيم وسدّ الاذن عن استماع المسامرة والكلام الدنس.

اما درجة الصوم الاخص فيتفرّد بها الكاملون الذين فضلًا عن صوم البطن والحواس يصومون عن الافكار الدنسة . ولهذا الصوم قانون واحد وهو استئصال شأفة كل هاجس عالميّ من عمق القلب . فهذا النوع من الصوم ولو كان إكماله عسرًا فالارتياض يسهّله والاعتياد يهوّنه كما قيل : انه يتهيأ للطبع ان يتطبّع على ما تهوى ، فيستطيع ان يحمل ما تحمّله . والقوانين الرسليّة تأمر : انه اذا صام الاكليركي السبت او الاحد ما خلا سبت البشارة[1] فليحرم. والآباء الذين التأموا في عنجر يقولون : إن بلغ ظنُّ الناسك ان يصوم الاحد فليكن محرومًا . إذن يجب على الراهب ان ينطر الساعة الثالثة من السبت والاحد وان يأكل كسرة صغيرة ويتعشّى مساء ، ليس لان الاكل يبرر بل تتميمًا للشريعة .

الفصل السابع : في عمل اليد

ان العقلاء يثبتون فضل عمل اليد فالانبا انطونيوس حينًا ضجر ، تراءى له ملاك يضفر الخوص . ثم وقف عن عمله وصلّى ثم عاد الى العمل ، ثم قام فصلّى وقال : « يا انطونيوس اصنع هكذا فتحيا » . قال الانبا أتير للانبا انبسطيون : « ضيّق جوفك وأَتمم عمل يديك » . وقال آخر : « لا تسل نعمة من احد ، بل فلتكفك يداك مأجورة » . اما الذين يضربون عن الشغل عملًا بقول الرب الآمر : أن نتشبه بطير السماء التي لا تزرع ولا تحصد وأن نقاتل مريم التي رغمًا عن عدم عملها قد مدحها الربّ اكثر من مرتا التي كانت مجتهدة بكثرة الخدمة ، فنجيبهم ان هذا يليق بالكاملين الذين قد اقتنوا العمل الروحيّ كاملًا ، لا بالراهب الذي لا يكون قد اقتنى هذه الصفات ، جريًا مع آلام الملذات التي يولدها فيه الكسل حتى لا يستطيع ان يطيل المكث في قلّيته .

ان بولس السعيد ولو كان له ان يعيش من الشعب الذي كان يرئسه ، فمع

1) ربما اراد بذلك سبت النور .

ذلك لم ياكل خبزاً من اهل تسالونيكية مجاناً ؛ لكنه كان يكدّ ليلاً ونهاراً ، لئلا يثقل على احد منهم . وسائر الرسل كانوا يصيدون السمك والاخوة الجليّون كانوا يحصدون مع العملة وآخرون يحيكون الجوالق والحصر وهنا ينبغي للراهب ان لا يمدح ما يبيعه ، بل عليه ان يبيّن عيوبه ولا يطلب ثمنه اكثر ممّا ينبغي . ويلزم ان يبيعه من المحتاجين والمعوزين .

اما الاكليريكيون فيباح لهم ان لا يشتغلوا ؛ لان الذين يخدمون المقدس ، فمن المقدس يقتاتون والذين يلازمون المذبح يقاسمون المذبح . امّا الآباء (اي الرعاة مم) فوإن كان لهم ان يكفوا حاجتهم من رعاياهم فالأجدى لهم ان يشتغلوا ولا يثقلوا على احد . هذا والكاتب[1] يقرّ الآن بخطائه قائلاً : اني اعلم ولا اتعلم اكتب وأمحي ما اكتب اكرز ولا اعمل بما اكرز اعظ وافعل خلاف ما اعظ .

الفصل الثامن : في العزلة

العزلة نوعان جسدية وروحيّة ، فالجسدية هي انتقال الجسد من بيت الوالدين الى مكان معتزل . والروحيّة هي انتقال الفكر من عالم الفساد الى ملكوت السماء ؛ حيث تقطن الملائكة . والعزلة الجسدية مذمومة اذا لم تقترن بالهرب من ضرر النفس ويصحبها اكتساب الفضل الروحي .

وضرر النفس اربعة انواع الاول الاضطهاد لاجل الاعتراف بالايمان . الثاني ثلب الإخوة حينما لا يجد المثلوب سبيلاً الى تبرير ضميره امامهم . الثالث مايصيب الراهب من وفرة المدح حيث يشتهر على ما قال الانبا أوجريس[2] : اذا كانت قلّيتك مطروقة فاهجرها . الرابع المحاربة الزنائيّة حيث يقطن الراهب .

اما المنفعة الروحية فعلى ثلاثة انواع الاول العلم الضروري . الثاني معاشرة الفضلاء . الثالث التبرّك من المقامات المقدسة . فهذه هي الوسائط التي تجعل العزلة نقيّة ومن لا يتذرّع بها ، بل يشرع بالتلهّي والهرب من كرب الاحتباس او الحاجة او لما يناله من الاحتقار حيث يكون فهذا يُذنب وانما يدفعه الى ذلك الشيطان المضلّ فيشتت عقله الى محل فمحل ، ويزيّن له اولا ان لا خطأ

١) اي المؤلف يعترف بخطائه .

٢) من الآباء السيّاح .

في ما يفتكر به ؟ الى ان يصرعه في الزنا. او الغضب او الكآبة وقطع الرجا.

يجب على من يذهب ليزور احد الآبا. ان يجتاز طريقه متذكرًا الله ولا يهمل احدى الصلوات . وكلما بلغ قريةً أو مدينةً فليسبق اولًا الى زيارة كنيستها ولا يقم ثَمَّ اكثر من ثلاثة ايام ومتى وصل قلّيَّة ذلك الاب ؟ فلا يقرع بابها بل يجلس خارجًا الى ان يشعر هو به ويدعوه فيدنو منه باتضاع ويسلّم عليه بوداعة ولا يتكلم الى ان يُسأل وليجاوب برزانةٍ على ما يُسأل فقط . واذا دعا الامر فليسل بأدبٍ ولا يمكث عند ذلك الاب اكثر من يوم . واذا سُئل عن حالة مكانه فليقصّ اخبار اتقيائه واصفيائه ولا يأتِ بتةً على ذكر فراديسه وخمائله او خصب اثماره واشجاره ؟ لئلا يعاب بحب التلهي وشهوة البطن .

والنقبا. الالبّا. يعتدّون نوع الفضل الثالث[1] مستعارا فيقولون : ان قوة الله تعالى المكنونة في عظام القديسين تنتشر في كل مكان . فاحد الآبا. الشيوخ حينما سأله تلميذه قائلًا : ابتِ ارغب ان ازور اورشليم . اجابه : بني انك لفي ضلال مبين هوذا كلٌّ يغتصب ذاته ليصعد الى اورشليم العليا وأنت تجتهد لتذهب الى اورشليم السفلى . هوذا تأتي ساعة ليس في هذا الجبل ولا في اورشليم تسجدون للآب لان الله روح والذين يسجدون له ينبغي ان يسجدوا له بالروح والحق (يوحنا ٤: ٢١و٢٢و٢٣) فامكث بنيَّ اذن في قليتك واجتهد ان ترى في داخلك ذلك القريب من الجميع . (ها ملكوت الله في داخلكم مم)

الفصل التاسع : في الآلام الشريرة

يجب ان نتكلم الآن في الآلام الشريرة التي تدهم الراهب في قليّته وينبغي ان يتطهر منها وهذه هي :

ان الابالسة لا يصبرون ان يضطروا المتوحد الى اكمال خدمته المعتادة؟ بينما يكون ثقيلًا على ذاته لا يستطيع ذلك فينهض يرنّم مبخلًا نفسه بالاعمال ؟ فيكون مَثله اذ ذاك مَثل من ينتشل الما. ويصبه في زقٍّ مثقوب . فيلائمه والحالة

١) زيارة الاماكن المقدسة والتبرك منها .

هذه، ان يريح جسده قارناً الاعمال الجسدية بالاعمال الروحية . على ان كثيرين عملوا اعمالًا عظيمة، لكنهم لم يدركوا طريق الله تعالى، اذ لم يعملوها بفطنة.

٢ – النهم

هذا الداء يداوى بالجوع الذي به يتنقّى العقل وتُدرك المسرّات الروحيّة وتتضع النفس وتخمد الشهوات ويُخفّ ثقل النوم . امّا قلة الاكل فتكون تدريجًا. فمن يأكل مثلًا في يومه قرصاً فليقلّل منه يومياً جزءا من ستين جزءا فلا يأتي عليه الشهر الّا وقد انقص نصف اكله، بدون ان يناله مضرّة . وبعض الرهبان يأكلون يومياً رطلًا من الخبز وبعضهم ثلثي الرطل وبعضهم نصفهُ واكثرهم يأكلون في اليوم مرةً واحـدةً . ومنهم من يأكلون مساء ويطوون مساء . ومنهم من يأكلون الاحد ويصومون الى الاحد التالي . امّا الناذرون فيقتصرون في اكلهم عن البيض واللبن والسمن والجبن والسمك فيتعذّبون بعذابين: حرمان شهوة الاكل اللذيذ التي تدفعهم الى فسخ نذرهم والمجد الفارغ الذي يحملهم على اعظام فضائلهم . ومتى غلب احد هذين الالمين على احدهم، يتهـافت الى ان يأكل جهارًا ما لم يكن يأكله خفية . وهذان الداءان يـداويان بان لا يفسخ الناذر نذره ولا يكفي ذاته كلّ حاجتهِ .

٣ – في الشبَق

ان شيطان الزنا يري الراهب مشاهـد دنسة ويسمعه اقوالًا رجسةً مع اجوبتها السمجة ويخيّل اليه ان ذلك يجري فعلًا، فيجسُ اللحم متملقاً الى ان يجندله في حمأة الدنس . فهذا الداء يداوى بالجوع المستمرّ والانقطاع عن مسامرة النساء والاحداث والنظر الى وجوههم . قال الانبا آمون . انحدرت الى البريّة وانا حدث فطردني الانبا فغنوطيس البسيط قائلًا : اني لا أدع وجوه الاحداث التي تحاكي وجوه النساء ان تسكن حيث المناسك . والقديس باسيليوس يقول : اذا قال امرء انه لا يتأذّى من مسامرة النساء، فهذا امّا ليس برجل او لا يشعر انه يضارع السكران الذي يدّعي استقامة العقل . وهو منها مناط الثريّا . ويستثنى من هذا الحكم الكاملون الذين كما انه لا يعرض لهم فكرٌ دنسٌ بتفرسهم في نيّرات السما. وازهار الارض، كذلـك لا يختلج في البابهم هاجس اللذة لنظرهم الوجوه الحسنة والجمال الصقيل . ومن يستشفي من هـذا

الداء في بداية امره يتألم بدون تخيّل الشبه المزدوج ومن يتداوى عند انتصاف امره يحسّ بالحركة الطبيعيّة من دون ما تخيّل . وعند اكتمال الشفاء تتلاشى الحركة الطبيعية بتلاشاة افكار الألم الدنس .

٤ً – الغضب

متى كان للمرء خصمٌ اضعفُ منه ، تحتدم نار غضبه ويسخن دم قلبه ويحمر وجههُ ومتى كان اقوى منه يرسب دمه في اعماق قلبه ويصفرُّ لونه وتنقلب حدّته خوفاً . وسبب الغضب عظمة الروح وكبرها والغطرسة والنهم . ويداوى هذا الداء بقوله تعالى : تعلّموا مني اني وديع ومتواضع القلب (متى ١١ : ٢٩). وبقوله جلّ شأنه : لا تغرب الشمس على غضبكم (افسس ٤ : ٢٦) . وبان يكره المرء الجنون الذي يحدث له حال غضبه اذ ترتجف اعضاؤه ويتلجلج لسانه ويزبد فمه واذا لم ينل مأربه من خصمه فيجرّحه ويوسعهُ شتماً ويمزّق ثيابه ويرفس الارض برجليه ويكسّر القصاع والمائدة بالحجارة ويضرب الدابّة وان لطمته لطمها وشمط اذنها وجرّها بذنبها واذا عوتب بذلك . اعتذر عن نفسه قائلاً : « انني لا استطيع ان أسمع او أرى ما لا يليق » .

٥ً – في الحقد

الحقد يتولد من الحدّة . ومتى ربّي يلد ثمان بنات : ١ً حسد المرء الحاقد عليه ، ٢ً بغضه له ، ٣ً فرحه بمصائبه ، ٤ً ثلبه له ، ٥ً تسببه الخسارة له ، ٦ً معارضته لرجه ، ٧ً احتقاره له ، ٨ً هزؤه به . قال احدهم : اذا ظنّ الحقود انه تثبّ ، اشبه بذلك مَنْ يحلم انه ماش . وهذا الداء يداوى باخماد الحدّة وتكريم الحاقد على ما قال الانبا اوجريس : ان يعقوب أرضى اخاه عيسو بالهدايا . انّا نحن لحاجتنا فبفائدة بسيطة ننال وطرنا .

٦ً – في الحسد

ان الانسان لا يحسد سوى من فاقه بايّ فضل كان . فكل من يرى خيراً في احد ويريد زواله عنه فهو حسود . والّا فان رغب ان يكون مثله فهو غيور صالح ، فيحسد الانسان من يبغضه او من لا يهوى ان يكون قرنَه ، او من يكون اعلى منه او من يطلب لذاته نعمةً نالها سواه . ومن يريد ان

يكون فريد عصره . ومن لا يحبُّ العلم والنسك فهو حسود شرير الهوى . ومن رأى امرءا يتعلم او ينسك فتألّم وامتعض فهو حسود ايضاً . وهذا الداء يداوى بأن يعلم المرء ان الحسد يغمُّ الحاسد ويفرح المحسود بما خُصَّ به من الخير .

٧ – في الشهوات

الشهوات تسرُّ الانسان وتريحه في هذه الحياة الدنيا غير انها لا تدعهُ يستعدُّ لتلك الحياة الابدية . وتقسم الشهوات الى لزوميّة كالقوت والكسوة والامراة والمسكن . والى طبيعية كالجنس والاهل . والى نظاميّة كالرئاسة والغنى والعبيد والأماء والجنّات والارضين . وعلى ما قال الانبا فومون : من ذلك الحكمة المنفردة بدون عمل ومثالها علم المعلّمين الذين يحصرون غايتهم في ابتزاز اموال التلامذة لا يفيدونهم شيئاً . ونقول باختصار : كما انه لا يتهيأ للانسان ان يرى صورتهُ في المياه العكرة، وكذلك لا يتسنى للعقل ان يرى بذاته ربّهُ، اذا لم تُجلَ مرآته من صداء كل شهوة . فما أحقَّ الانسانَ المسافر في بحر هذه الدنيا ان يُمثَّل بمن يفرح أو يحزن في الحلم ثم لا يلبث ان ينتبه . فلا يرى لذلك أثرًا .

٨ – في الشراهة

لو علم الانسان معاطب الغنى، لما كدَّ النفس سعياً وراءه . امّا هذه المعاطب فهي : المضارُّ والمكائد التي ينصبها له المتسلطون واللصوص وحسد الاقران وما يتبع ذلك من الاعمال المذمومة من مثل النهم والشبق والمجيد الفارغ وما يتولّد من ذلك مثل الكذب والظلم والتعطّل من الاعمال الروحية، خاصة، اذ لا يستطيع المرء ان يعبد ربّين . ومتى بحث الانسان عمّا خُلق الذهب لاجله قام العقل الملكيُّ يجيب : ذلك لاجل سد الحاجات الضرورية . اما العقل الشيطاني فيقول : ذلك لاجل البذخ والتلذُّذ . وهذا الداء يداوى بالاقتصاد والاكتفاء بما وُهبنا من الرزق وبمقابلة لذة الاغنياء العابرة بعظمة القاهرين نفوسهم وبنظر المرء الى الادنى منه لا الى الاعلى منه .

٩ – في المجد الفارغ

محبة المجد الفارغ هي اشتهاء الكرامة بتشهير الفضيلة، والمرائون يجتهدون في اكتساب المجد الفارغ باعمال النسك الشاقة الكاذبة. ومن الناس من لا يحفلون بالمجد، لكنهم يفرحون متى مُدحوا. وفئة يحزنون عند ذلك غير انهم يرغبونه ولا ينبذونه. وبعض يهربون من حيث يُمجدون. والكاملون يستاؤون من ممجديهم. ورهط يغتمّون متى اتهموا ويحقدون على متهميهم. وقوم يحزنون لذلك فقط. ونزر منهم يحسبون الامتهان كالمجد. وآخرون يحبون متهميهم لانه بذلك يكشف لهم عيوبهم فيستشفون منها. وداء محبة المجد الفارغ يداوى بعكس المرء على ما يسوّد وجهه ويخفض من كرامته وبأن يماثل الميت الذي لا يفرح بالمجد ولا يحزن بالهوان. وبأن يخدم ربّه سرًّا ويكون في الظاهر كاحد الناس. والرجل الفاضل يقول لمن يمجّده: لو تعامني كما اعلمُ نفسي لما مجدتني.

١٠ – في الرياء

وهو ضلالة تقوم بكتم السرائر المقوتة وتبيين الظواهر المحبوبة، كما يفعل اولئك الذين يشنّجون اعصابهم مظهرين ان ذلك اصابهم بسبب كثرة السجود. ويشدّون أحقاءهم بالحبل ويشجّون أصواتهم ويسكتون وهم يبثون الشرّ في قلوبهم ويأتون بالمرتلين يرتلون لهم ليجتذبوا السذّج الى التبرك منهم، قصدَ ان يتكهّنوا لهم. وما يدفع الى الرياء انما هو الطمع بكسب المجد والدرهم. فهذا الداء يداوى ببغض المجد والفرح بالعار وبقطع الامل من ارباح البشر. قال الانبا دانيال: «نظرت يوماً الى قلّية الانبا فومون فرأيته واقفاً في الباب ولما احسّ بي هرول فجلس على الجوالق». وبعض الاحيان يبيّن الافاضل اعمالهم طمعاً أن يتشبّه بهم الناظرون كما قال الانبا مقريس للانبا اوجريس: اني لم اشبع خبزاً ولا نوماً مدى عشرين عاماً.

١١ – في الكبرياء

وهي خُيلاء نفسيّة يرى بها الانسان نفسه ارفعَ من غيره، وفرعون ترفّع

على الله تعالى قائلاً : ان نيلوس خاصّتي هو وانا صنعته . وقد تعظم على عبيده (اي عبيد الرب) مضطهدوهم . وذوو العقول العمياء يتعظّمون على اقرانهم فيحسبون فضلهم نقصاً . وعلة الكبرياء الفخر والحقد والحسد التي لا تدع الانسان يتّضع لصاحبه ولا أن يماثله مقاماً . وعلاماتها محبة التزيّن والركوب والسلام في الاسواق والتصدُّر في الولائم . وان لا يسير المرء منفرداً وان لا يذهب عند من هو افضل منه وأن يشمئزّ من ان يجتمع بمن يجتمعون على المياه والتدفئة . ويكره عمل اليد ولا يحمل امتعته بل يكلف غيره ذلك . اما شفاء هذا الداء فقد ذكرنا طريقته عند كلامنا في الاتضاع .

١٢ — في الافتخار

وهو مباهاة المرء بما يكون عليه من الصلاح كالمعرفة والعلم والاعمال الصالحة والجمال والغنى والعزّة والنسب والبراعة . والكبرياء تفارق الافتخار بكونها تقوم بمقابلة الانسان نفسه بآخر بخلاف الافتخار الذي يكون بدون ذلك . فهو تجاه الكبرياء كالولد تجاه الرجل . وهذا الداء يداوى بأن يعتقد المرء ان جميع ما هو له من الكمال انما هو من الله تعالى وليس من قبل نفسه . اذن من يفتخر فليفتخر بالرب .

ان الانبا فومون لمّا سمع احد الاخوة يقول : كم لي من السنين لم ادخل البلدة . اجابهُ لو كنت انا بقرب هذه البلدة لدخلتها ليلاً وطفت بها لئلا افتخر بكوني لم ادخلها .

١٣ — في التهذيب

تهذيب الناس يختصّ بالرعاة لا بالرهبان الذين ينبغي لهم أن يقصروا اهتمامهم على نفوسهم . قال الانبا فومون : اني اذا نظرت اخاً يخطئ لا أوبخهُ فان لامني الربُّ على ذلك أجبته : انت علمتني أن أخرج الخشبة من عيني اولاً ثم اخرج القذى من عين اخي .

❊ الفصل العاشر : في الاعمال الصالحة ❊

نأتي هنا على ذكر الاعمال التي سبقنا فعدَّدناها تلك التي تستحق بها النفس الاشتراك في ذلك العيد الروحي حيث يتبلَّج الصبح ويظهر المولى الحسن . وهذه الاعمال هي :

١ً – العلم

لا عامل اقوى على اقتلاع العوائد الشريرة من النفس ، كالهيام بحب العلم . فيجب على من يتعلم ان يبتدئ بالمزامير . ثم بالعهد العتيق فالعهد الجديد . ثم يتخرج بكتب الفقه التي نصفها هنا باختصار فهي تفقهه ليدرك قوام جسده فيروضه بالدروس الصعبة الى ان يستأصل من نفسه العيوب المشينة ويغرس عوضها العوائد المزيِّنة . وينبغي ان يكون العلم صالحاً ذلك بان لا يستعبد صاحبه للملذات وان لا يعاشر الرؤساء ويتقرَّب منهم . وان لا يعجِّل بالجواب متى سُئل وان يعلِّم بمثله اكثر منه بقوله . ويوجب تقديم الفروض على النوافل .

٢ً – في الايمان

الايمان في رأي القديس بولس هو الايقان بالامور المرجوَّة كانها قد تمت بالفعل وظهور ما لا يرى (عبرانيين ١١ : ١) . فبهذا التحديد يلائم كلَّ ايمان . امَّا الايمان الذي نريده هنا فهو تسليم العقل للتعليم الانجيلي ويتمُّ ذلك باعتراف اللسان به وبحفظ الوصايا . ومن حيث ان مسيحي هذا العصر متمسكون بالامانة التي أثبتت في نيقية ، فيجب الاقتصاد على التشبث بها دون سواها ، ورذل سائر الامانات التي تختص بالطبائع والاقانيم . أمَّا الرهبان الحقيقيون فيتكلَّمون عن الأعمال « الرهبانية » فقط ولا يدرسون مسئلة الايمان لكنَّهم يلتزمون بالاعتراف أنَّ في المسيح ، جل شأنه ، اقنوماً واحداً وطبيعتين .

٣ – في الشكر

وهو الشكر على النعمة الحالية او المتوقَّعة ومـا يدفع المرء الى الشكر على النعمة انما هو معرفته قيمتها ونوعها ، فيقابلها بشكر يعادلها . والنعمة إمَّا حقيقية وإمَّا مجازيَّة والحقيقية أمَّا مقصودة لذاتها مثل السرور الدائم في

العالم الروحي وامّا غير مقصودة لذاتها كالمعرفة الراسخة . والعمل الفاضل ممـا يُطلب لاجل السرور الدائم وكذلك النعمة المجازيّة امّا تقصد لذاتها كالحياة والقوة والشفاء والجمال او تقصد لاجل غيرها كالكرامة والغنى والاهلين والمريحين الذين يلتمسون تسهيلًا لاسباب الحياة . وكما ان معرفة النعمة هي سبب الشكر عليها كذلك عدم معرفتها هو سبب جحودها ذلك مثل الذين لا يعرفون نعمة الهواء فلا يشكرونها مع انهم اذا احتبس الهواء اختنقوا ومتى انتشر عرفوا نعمتهُ فبادروا الى شكرها . امّا الانام الافاضل فيشكرون حتى في الشدائد لانهم يدرون انه لا تحدث شدّة الّا ويكون قد حدث اعظم منها فيشكرونه تعالى لانه لم يدفعهم الى شدة اعظم . ويضاعفون شكرهم له عزَّ وجلَّ لانهم بواسطة الشدة الزائلة ينجون من تلك الشدة الدائمة .

٤ً — في الرجاء

الرجاء هو توَقان النفس الى ما هو عزيز عليها . وبما ان العزيز الخاص هو ذلك السرور الدائم فما يبلغ بالمرء اليه انما هو كفاءة الفضل والنسك وصفاء القلب ونقاء النفس . واذا كان الله سبحانه وتعالى هيّأ للجسد البالي نعمةً جلّى لا قياس لها فكيف يمنع نعمته عن النفس التي تفوق الجسد فضلًا . ان مجرّد الافتكار يزيد الرجاء توكيدًا والامل توطيدًا .

٥ً — في مخافة الله

وهي غمّة القلب بسبب تيقُّن وجود الشدّة العتيدة وعلّتها معرفة المرء خطاياه وعلاماتها الظاهرة اصفرار الوجه والهزال وعلاماتها الباطنة بغض الخطيـة . والشدة امّا جسدية وامّا روحية . فالخوف من الاولى يرذله العقلاء فيقولون : « اننا لم نأخذ قط روح المخافة فلا يليق بنـا ان نخشى ولو لصقت السماء بالارض » . امّا الخوف من الشدة الروحيّة فيمدحه الحكماء ويقولون : « من لا يخاف الله يخشى طَيفَ نفسه » . والخوف متى تمكّن من قلب المرء يسوقهُ الى الحذر من اعمال كثيرة غير ملومة .

٦ً — في الفقر

ان العقـلاء يفضلون الفقر مع الصبر على الغنى مع الرحمة فيقولون : « ان

الراهب يفوق المتصدقين درجة . امّا اهل العالم فبعكس ذلـك » . والفقير الذي يصبر على حاجته ، فهو اهل للتطويبات الانجيلية . فمثل هذا ان نال كفافه لم يتسوّل وان فضل عنه اعطى المحتاجين ولا يستعطي ابدًا من الاثمة والمتكبرين. وان شاهد امرءًا احوج منه يدعه يأخذ ماكان يؤمّل هو نفسهُ باخذهِ . وان كان قديرًا على العمل لم يتسوّل . ويجب على من يتصدّق ان يعطي قبل ان يُسأل وان يخفي صدقته ما استطاع ، فيعطي الاعمى أو يلقي صدقته في سبيل الفقير او يصرّها برقعةٍ . ويتصدّق من عمـله المبرور على من لا يقدرون ان يتجولوا فيستقطون . والاستعطـاء اثم ان قصر المستعطي اتكاله على البشر دون الله تعالى . ومثل هذا يسيء غالبًا الى الناس .

٧ – في الاتكال

وهو القاء المرء تدبيره الى العناية الربانية كالقاء العناية بالولـد الى مدبرهِ حتى يأتي الوقت الذي حدّه ابوه . ومثل القاء الولد اتكاله على امه كقولهِ : « انت اتكالي من الرحم ورجائي من ثديي امي». او مثل اتكال البهيمة على صاحبها كقولهِ :« كنت وديعًا لا اعلم وصرت عندك كالبهيمـة » والاتكال الاول واهنٌ لان الولد يدري انه متى بلغ اشدّه يصبح بلا احتياج الى مدبرهِ. والاتكال الثاني اقوى من الاول ، لان الولـد يعلم انه ولو بلغ اشدّه ، لا يستغني عن امه . والاتكال الثالث اقوى من كليهما لانه لا يأتي زمن تتكل فيه البهيمة على نفسها ، لا على صاحبها . والابرار يتكلون اختياريًا على الرب في المصائب التي تمرضهم والتي لا تمرضهم متيقنين ان الله تعالى هو أجرهم العظيم. هكذا المختارون ، قصروا اتكالهم على الرب متقدمهم مثل دانيال ، ايام أُلقي في جبّ الاسد ، وفتيان حنانيا آوانَ طرحوا في أتون النار .

٨ً في نقاوة الافكار

كل فكر لا يكون لله ، او لاجل الله ، لا يكون نقيًا ، حتى اذا افتكر المرء بنقاوة فكره معتدًا بذلـك ، امسى غير نقيّ الفكر . وشهوة البهرجات انما تصدر عن الافكار الغير النقية . قال الانبا فومون : « كما ان الـذباب لا يقرب من القدر الفائرة كذلك لا تدنو الافكار الخبيثـة من القلب المتأجج

نارًا ، يجب الله ، وقال ايضاً :« كما ان الفأس لا تقطع بدون قاطع ، كذلك الافكار اذا لم تعطها سبيلًا » . وقال ايضاً : « اذا ألقيت الافكار الخبيثة في عمق القلب وهي كالعقرب وسددت عليها ماتت هناك سريعاً» . قال احد الاخوة للانبا ارسانيوس :« كيف وانت حكيم تسأل عن الافكار هذا الاميّ » كانه الانبا مكاريوس ؟ فاجابه :« اني قد تعلمت آداب اليونان والرومان ولم أتعلم ألف بيتَ هذا الأميّ » .

٩ – في ذكر الموت

لا احد يتذكر الموت فيستسهل الخطأ . وربَّ انسانٍ يقول : « اني أدلي المنزل واضع الموت امام عينيَّ قبل ان ارفعه » . وسبب عدم تذكر الموت هو عشق الحياة الزمنية ، لان من يحبُّ امرًا يبغض نقيضهُ طبعاً ؛ حتى لا يشاء ان يفكر به البتة . وهذا الداء يشفى بان يحتسب المرء انَّ الانسان في هذا العالم كالحلم ، يشبه طيران طائرٍ في الهواء لا يُعرف له سبيل . او يحاكي مخر السفينة في العباب ، فلا يبين لها اثر . او يضارع النَّدى سحرًا ينضب ويجفُّ قبل الظهيرة . او يشابه الزهر الذي لا يكاد ينشأ او ينشقُّ حتى ييبس بمثل هذه الافكار تخمد نار محبة هذه الحياة الزمنية الزائلة ، فلا يفارق الموت الذهن فتُستقبح الخطيئة .

الباب الثالث

في نواح الكاملين الروحيّ وفيه عشرة فصول

الفصل الأول : في حركة الكمال الاولى

بعد ان يتنقَّى الجسد باعمال النسك المُتعبة ويَصفو العقل وتسدُّ طاقات الحواس وكواه ويستنير مركز القلب ، تتراءى له الحمامة احيانًا ، لا دائمًا ، كالبرق الذي يُومض ويتوارى . وتتلمع امامه بجمالها ويحلّي ثمرها حلقهُ فيدهش لمنظرها ويُسبى هياماً بها ، حتى يخيَّل اليه انه غير موجود ؟ فتظنُّ النفس انها تذوب في بوتقة محبة هذه الحمامة[1] . ومتى بلغت هذا الحدَّ تتقمّص باتضاع بليغ ، حتى يحتسب الراهب نفسه مَدَرًا ورمادًا . فيذرف دموع الفرح والألم مدرارًا بسبب

١) اشارة الى شيء من الانخطاف (extase)

الموهبة والخوف ويحرص على التسبيح الافضل والسجود الاكمل مستعذباً ذلك اي استعذاب ، متذكراً امثلة القديسين، مجهداً النفس اقتداء بهم ، عاكفاً على اراحة المتضايقين وخدمة المرضى . وبما ان مثل هذه الامور تبلهُ عن مسامرة الحمامة يعود فيعكف على السكوت والصمت حتى لا يجيب الا على ما كان ضرورياً واجباً من الأسئلة ، بل يكره مخاطبة الناس كرهَهُ مخاطبة الاعداء . ؟ واذ تراه الحمامة الغضّة الصبا ، القديمة الاجيال ، عاكفاً على مثل هذه ، تعود الى زيارته فان لم يستسلم اليها بكليته ، تزدجره لاكمة اياه وبقدر ما يذوب شوقاً اليها تنبسط هي اليه او تنكمش عنه . امّا العالميّون الذين يقصرون اهتمامهم على العالميّات فيضربون مثلاً عـلى ما تقدّم ويقولون : اذا رأت الحبيبة (في حبيبها) علامة الحب الراسخ ، تهرول اليه على رأسها لاعلى رجليها .

الفصل الثاني : في حركات الكمال الوسطى

بعد ان تتمّ حركات الكمال الراسخة ، تبذل الحمامة تأثيراتها على العقل بنوع يلائم كل نفس تشغف بها جاعلةً العقل قابلاً للأوحية فتفيض فيه اولاً ، معرفة المبروءات ، حتى بقدر ما تجعل الشمس الطبائع المحسوسة مرئيَّةً للعين ، تصيّر الحمامة الطبائع المعقولة منظورةً للنفس ، فينثني العقل عن كل ما في السماء وعلى الارض ، ويذوب بحبّ الحمامة مبتغياً ان يلتصق بها وحدها . امّا هي ، فمتى رأت اضطرامَ حبِه وانه قد تصفّى بالبوتقة كالذهب ، فلا تعود تتراءى له كالبرق السريع ، بل مثل كوكب مغشّى بالغمام . غير انهـا تحتجب وقت الصلاة ، مضرمةً النفس سابيةً العقل فينطرح الرجل على الارض كالميت[1] . ثم ينهض متذكراً منظرها فتنقشع الغمامة رويداً رويداً ، فتستنير العين ويكون ان الكامل بهذا النهوض يشبه النائم وهو يتظان ويشبه اليقظان وهو نائم[2]

الفصل الثالث : في حركات الكمال الكاملة

متى ما اعتادت النفس ما تقدّمنا فوصفنـا من الامور ، يصبح العقل ذا دالّة على الحمامة ، فيحدّق بها مطمئناً ويسامرها . فلا تعود تتراءى له كالبرق

١) اشارة الى نوع من الانخطاف

٢) اشارة الى هذه الآية : « اني نائمة وقلبي مستيقظ » (نشيد الاناشيد)

الذاهب او كأنها في غمامة كثيفة ، بل تحلّ منه حلول الحبّة من القلب . وكما انها حياة الازل ، فتظهر نفسها للعقل أنها علّة العلل وتدلي اليه بأسرار عجيبة فيعرف حينذاك، الكلمة التي كان في البدء وان كلّ شيء كان به (يوحنا ١ : ١) . ويعرف الحكمة الازلية وملائكة الله الذين هم ارواح الخدمة ، الذين يسجدون له مسبحين . ومتى امتلأ العقل من رؤيتهم وجلالهم وسرورهم ، يضحي مثلهم . وحينما تطير الحمامة والملائكة وانفس الابرار بخدمته (العقل) ويذهب هو بصحبتهم ، يبلغ حالًا الى سحابة النور الذي لا يدنى منه . ومتى ما توغّل فيها يحتجب ، حيث يقرّ في المقام الموسويّ مزدهيًا عجبًا بجمال الرب سيد الجميع ولكثرة ما ينال من اللذّة ، لا يعود يقوى ان ينعطف الى مكانه الاول ، الّا اذا حلّه ربّه من الارتباط به . ومتى عاد فيبلّل اعضاء الجسد بنار اللاهوت التي حلّت به . ومتى ما اشتهى ولو قليلًا ، ان يصعد ، يختطف الجسد معه ايضًا فلا يكاد ينخلع عنه كما لا يكاد ينخلع الحذاء من الرجلين .

الفصل الرابع : في وحدة العقل

متى اتّحد العقل (بالاله) الصالح ، يرتقي من مجد الى مجد بالرب الروح ، ناسيًا ، ليس ما في العالم فقط ، بل نفسهُ ايضًا ، منشحًا بنور ذلك الخدر الذي هو مثال الله تعالى ، حيث يرتشف من كؤوس ذيالك الخدر المترعة ، متذكرًا القول الكريم : انا والآب واحد (يوحنا ١٠ : ٣٠) انا في ابي وابي فيَّ . (يوحنا ١٤ : ١٠)

ان الحمامة تحضّ العقل على اقتناء ذلك واشباهه بالآية الجليلة : ان سرًّا لي ولابنا. بيتي . والرسول المغبوط قد رمز الى ذلك بقوله : وسمعت كلامًا لا يقدر بشر ان ينطق بمثله . وتلميذه ايريثاوس سلّم تلميذه ديونسيوس قائلًا : « متى اتّحد العقل بالاله الجواد ، نبذ عنه كل شيء ، حتى اسم الغرام والهيام . لان ما يكون هنا محبًا ومحبوبًا ، يضحي هناك محبوبًا ومحبًا فيأتي كلّ كنيةٍ تعني التثنية مثل الابوّة والبنوّة والممجّد والمتمجّد، لانّ العقل عندئذ لا يمجّد ولا يتمجّد» .

ان النقيب الالمعيّ يبرهن على حقيقة ذلك من الجسم قائلًا كما اننا نعي المياه بقدر الاوعية وتنتشر اشعة الشمس بقدر الكوى وتتأجج النار بقدر ما

تضرم به من المواد ويهبُّ الهواء بقدر ما يُحبس منه في الظروف حتى اذا تلاشت هذه الأصونة والاسباب ،عاد كلٌ من المياه وسائر ما تقدّم الى اصله الوحيد ، فهكذا اذا انحلَّت الاجساد ، عادت العقول الى الواحد الاحد . وكما ان الجسد يعود الى الاصل المأخوذ منه كذلك العقل يعود الى الله[١] لانه قبسة منه تعالى فيكون اذ ذاك ، تقدست اسماؤه ، كلًّا في الكل على ما علمنا اساتذتنا ومن هدونا الصراط المستقيم[٢] .

الفصل الخامس : في دواعي المحبّة

دواعي المحبة خمسة : ١ً تنازع البقا ، ٢ً معرفة الجميل ٣ً ، الجمال الظاهر ، ٤ً الجمال الباطن ، ٥ً التشابه بالشكل ؛ بناء على ذلك يحبُّ الله بالافضل ، وذلك معلوم من ان الانسان اذا احبَّ المحافظة على نفسه احب اضطرارًا الله تعالى حافظَهُ الذي به نحيى ونتحركُ .

واذا كان المرء يحبُّ من يحسن اليه على غير أمل الوفاء بجميله ، فاحرى ان يلتزم محبة الله الذي هيَّأ له ما يفوت العدَّ من الخيرات ، كنور الشمس والقمر والكواكب وإتلاف الهواء وغيث السحب ومياه الانهر والينابيع واثمار الارض والحيوانات باصنافها وسائر الاشيا . ممَّا لا يحصره حدٌّ ولا يحصيه عدٌّ .

واذا كان الجمال الظاهر يُحَبُّ فكيف لا يُحَبُّ ذاك المتوشح بلباس يتلألأ كالثلج وشعره كالصوف النقي وهو جالس على العرش المضطرم والعجلات المتوقدة والمركبة ذات الاربعة الوجوه[٣] (دانيال ٧ : ٩) (وحزقيال ١ : ٦) يتراءى للانقياء القلوب ، مَن اذا استأهل المرء محبته ، كفر بكل جمال ظاهر هائمًا به فقط .

واذا كان يحبُّ الجمال الباطن المتَّصف بمعرفة الاحاجي والمتنزه عن آلام الخطيئة والراغب في البرارة بانواعها ، فمن لا يحبُّ مقدس القديسين ومطهر الدنسين ، مَنْ علمُ سائر البرايا لا يعدُل علمه .

---

١) هذا التعليم غير صحيح لان العقل اعني النفس برأها الله من لا شيء وليس من ذاته الالهيّة التي لا تقبل تجزؤًا بتةً . ورأيه هذا يشتمّ منه المذهب الحلولي .

٢) رأيه الخاص .

٣) هذا ما يتصوره الخيال من التشابيه تمثيلًا للعقل القاصر عن ادراك الكنه الالهي السامي سموًّا لا غاية بعده .

واذا كان شبيه الشكل يُحَبّ ، فما أتعس الانسان الذي لا يحب ربَّهُ وخالقه على صورته ومثالهِ .

الفصل السادس : في لذّة المعرفة

كما ان لكلّ من حواس الانسان كاللمس والذوق والنظر والسمع والشمّ لذة خاصة بالمحسوسات ، كذلك للعقل لذّة خاصة بالمعقولات . ولما لم يكن بين المعقولات اعجب واغرب واكمل من سيد الكائنات ، كانت اللذة التي تأتي عن معرفته تفوق سائر اللذات . وهذه لا يشتاقها الّا من ذاقها ، كما ان الاصمّ لا يشتاق ان يسمع ضرب القيثارة .

ومع ان علم معرفة الله تعذّب فوق ما تعذّب الاوجاع ، فكثيرون لا يتعذّبون بذلك ، شأن العضو الخدِر الذي لا يحسّ بالحرّ ولا بالقرّ .

ليس من انسان يهيم عقله بحب مولاه فتستطيع ان تستأثر به لذة شيء مّا في العالم ولا احد يجد الله تعالى الّا وينبذ العالم بأسره .

اذا مُلح العقل بمحبة الربّ فلا يعود يتشوّش اصلاً لان من يخدم السادات يخلع عنهُ أسمال العبيد . فهذه حالة لذّة العقل بعد انفصاله تامًّا عن المادّة ، على ما قال بولس المصطفى : اننا الآن ننظر بالمرآة بالالغاز امّا عندئذٍ فمواجهة . (١ كور ١٣ : ١٢) وقال القديس غريغوريوس : ان النفس الصالحة المحبة لله اذ تنفصل من الجسد ، تلتذّ لذّةً غريبةً وتسرّ سرورًا عجيبًا ، اذ ينجلي لها ما كان قاتمًا .

الفصل السابع : في التربية على محبة الله

تربو محبة الله في النفس ، اذ يترقّى الانسان في الايمان والرجاء والمحبة وينشو بالامساك ، لاهجًا في اعمال الباري العجيبة . ويرى بعقله قدرة الله الضابطة الكل ، تجوز بدون مانع اقاصي الارض وما جاوزها . وتحلّق فوق السماء والبحار واللجج وجميع ما فيها ؛ بَيدَ ان العقل لا يستأسر لهذه الامور ولا يستسلم لها ، بل يمقت كلّ لذّة ، مبتغيًا الاله الجواد فقط ، تائقًا الى ان ينقّي قلبه من كل شغف بسواه تعالى .

كما ان وميضاً من اشعة الازلية ، ولو طفيفاً وشرارةً من محبة الله ولو خفيفة ، تضحي ضَرَماً عظيماً ، يضرم النفس ، كذلك محبُّ الله يذوب هياماً بمشاهدة وجهِ الكريم ، حتى لا الموت ولا الحياة ولا الاشياء الحاضرة ولا المستقبلة ولا خليقة اخرى تقدر ان تفصله عن محبّة ربهِ ، (رومية ٨ : ٣٥) بل يكمل ارادته القدوسة . وشغفاه تسبحان اسمه العالي ، فيتعزّى بوجوده في كوخ ، ساكناً ساكتاً مسروراً باعمال النسك ، رائقاً بالاخيار والاشرار . وصلاته ان لا تفتر حرارة حبّه ، ساتراً اياه ما استطاع ، غير محبٍّ سواه .

ان الامرأة المصرية (امرأة فوطيفار) التي تعشقت يوسف الحسن آمنت بعد موت بعلها ، فاراد يوسف ان يتزوجها فأبت قائلةً : لست أُحبُّ عبداً عرفتُ سيدهُ من قبلهِ فأحببته[1] .

الفصل الثامن : في معرفة الله

نعرف الخالق من الخلائق . تلك قاعدة تبعها كثيرون . اما المختارون الذين سبق الله تعالى فاعدّهم ليكونوا مدعوّين وقديسين ، فيعرفون الخلائق من الخالق ، على ما قال احدهم : « اني عرفت ذاتي والعالم من معرفتي الهي » .

امّا المرتل الالهيُّ فيعلن نوع المعرفة الاول بقوله : « ان السماوات تذيع مجد الله (مزمور ١٨ : ٢) . ويفصح عن النوع الثاني بقوله : بنورك نعاين النور . (مزمور ٣٥ : ١٠) .

اما الحكماء الخوارج فيفضلون النوع الثاني من معرفة الله هذه على النوع الاول.

ولما كانت معرفة الله هي هي الدافع الى محبته تعالى وكان الكثيرون لا يعرفونه كما هو ، كانت من ثمة محبتهم له ، تقدّست اسماؤه ، لا اساس لها[2] .

ويوجد اناس يعترفون به كما هو ، انما ذلك منهم على سبيل التقليد والاخذ عن السماع مع شيءٍ من الكرب المضطرب .

امّا الثابتون في معرفة الله ، فمحبتهم لجلالته موسسة على صخر متين حتى ان الشدائد والاضطهادات والسيف والنار لا تستطيع ان تزعزعها[3]

١) لم يذكر الكتاب شيئاً من هذا .

٢) ربما قصد عدم الثبات في المحبة ، لمعرفتهم الله معرفة ناقصة

٣) تلميح الى كلام القديس بولس : (رومية ٨ : ٣٥)

الفصل التاسع : في الاحوال التي تطرأ على الكملا.

في الغالب يطرأ على الكملا. من بلوغهم الكمال الى انحلالهم من الجسد اثنتا عشرة حالة : الاولى استغراق العقل في القلب ، حتى يقف الفكر لا يختلج واللسان لا ينبس بكلمة تمجيد وعندها لا يطيق المرء استماع حفيف ورقة ، فيسود السكون حركة النفس والجسد. الثانية ألتفقه ، وذلك متى عرف العقل رفيع منزلته وأدرك انه قبسة[1] منه تعالى، فيستولي عليه من ثمة ، السكون ويأخذ منه السكوت مأخذه ، حتى اذا غلب عليه السهو ، تذرَّع للعود الى ذاته بمطالعة الكتب ومزاولة السجود. الثالثة حبُّ الترتيل الذي به يضحي المرء كاملاً ، حتى اذا ما تلا آيَ المزامير بذاكرته ، يكون كانه سامع المرتل الالهي يضرب على قيثارة ، ثم ينقضي مشهده هذا كانه لم يكن. الرابع ذرف الدموع بداهةً حيث تتأجج المحبة في القلب نارًا فتفيض العيون الدمع مدرارًا. الخامسة تذكُّر الدينونة ، حيث تتولد في النفس المحبة البشرية ، ناظرة الى الجميع بالسواء لا تفرق بين البار والخاطئ ، ولا بين العبد والحر ، ولا بين الختان والقلف ، ولا بين الانثى والذكر ، بل تبغي المراحم للجميع . السادسة استنارة العقل باشعة ملائكية ، تقوم من نار ونور ، فيتلهف (العقل) للاندماج في اجواقهم (الملائكة) والانخراط في مصافهم . السابعة استماع التقديسات السارفيمية التي لا يستطاع تمثيلها بالاصوات الطبيعية ؛ لكن بالاصوات[2] العقلية. الثامنة التشبه . وذلك متى استضاء العقل بالنور غير المنعوت ، حتى يستحيل اليه استحالة السحابة الشفافة تجاه الشمس ، حيث تأخذ شكلها كاملاً . التاسعة الاضطرام نارًا وهذا يحدث متى استحرَّ جسدنا كلُّه ، على نحو ما شوهد الانبا ارسانيوس ، اذ كان يصلي في قلايته . العاشرة الاختلا. وهذا النوع يدعوه الفقها. غير مكتئب وبه تمحى الاعداد وهنا لا يلبث الضعف البشري ولا الصلاة ولا التضرُّع ولا ذكر ما هنا او هناك ، لان العقل اذ ذاك يكون

١) نفحة نير العقل وتضرم القلب .

٢) ربما اراد التأمل يكنى به عن صوت العقل.

كقابل جميع الصلوات وليس كمصلٍّ وكمجيب السؤالات وليس كسائل . الحادية عشرة الفرح عن غير سبب معلوم . فيعرف العقل اذ ذاك، انه فرحان، لكنه لا يعلم ما سبب ذلك . الثانية عشرة جزالة الكلام وتبيين الخفايا وايضاح المستقبلات المسطرة في صدر الكتاب المسمَّى سفر معرفة الله تعالى .

الفصل العاشر : في سقوط الكاملين

انه ولئن كان بدرجة الكمال يتقدس الجسد ويتطهر القلب ويستنير العقل، فمع ذلك، اذا لم يحتفظ المرء لنفسه، ينشب عاجلاً في الشرك الذي يخفيه له الشرير ويسقط من سموّ ارتفاعه كما سقط بليار .

اذا استرقت المرء الافكارُ الشريرة فسرّ مغتبطاً بما يصير اليه من الاوحية، رغب في ان يبوح بما استحقَّه من المواهب التي لم ترها عين ولم تسمع بها اذن، فيهبُّ ميمّماً المدنَ والقرى، كانه معلّم ومنقذ للنفوس، رجاء ان يكون مثالاً يقتدي به كثيرون حتى يُخيَّل اليه أن الابالسة يتعوّذون منه مولولين صارخين : ما لنا ولك يا عبد الله أأتيتَ لتعذبنا ؟ فتُمثّل له الخيلاء أن الناس يشفون بواسطته . والشعب يزدحم مقتحماً ليدنو منه ليلمس ولو طَرَف ثوبه فيوقف من قصدهُ على بابه وهكذا لا يعتم ان يُيتِّم العالَمَ فيكون انه اذا رأى نِدًّا له، أفصح منه كلاماً واعذب مقالاً، حسده وابغضهُ، كما حدث لهرون الاسكندري ذي السيرة الشاقة الذي كان يصوم من اليوم الى الثلاثة الايام . فتمكَّن منه العُجب بسبب ذلك ايَّ تمكُّن، حتى عَميَ عقله فأخذ يحتقر الانبا اوجريس قائلاً عنه : « انه يضلّل من يعلّمهم » اذ لا يقتضي لهم معلّمون سوى المسيح القائل : لا تدعوا لكم في الارض عظيماً . (متى ٢٣ : ٨) ثم أغراه الشيطان فهبط الى الاسكندرية، حيث راح مستغرقاً بحمأة الدنس، حتى تهرأت خصيتاه ولم يشفَ الَّا وقد عدمها تماماً فعاد الى رشده .

ان المرء يكمل بمثل هذه العواطف والنوافذ التي يجب ان يناجي بها ربَّهُ قائلاً : « لا تطرحني من امامك وروحك القدوس لا تنزعهُ مني » . (مزمور ٥٠ : ١٣)

الباب الرابع

حكاية ترقّي المؤلف في العلوم وفي ايضاح بعض قضايا (وهي ثمّة قضية)

لقد همت بمحبة العلوم منذ نعومة اظفاري، ايّ هيـام وتفقّهتُ الكتب المقدسة بالنور الطبيعي ودرست الاسرار الغامضة في كتب القديسين على استاذ مـاهر . ولمّا اكملت العشرين من ربيع عمري اضطرني البطريرك الذي كان يومئذٍ ان أقبل رئاسة الكهنوت فدعـاني الحال اذ ذاك ان أوضح لسادتي اعتقادات الصرحاء والدخلاء. فبعد ان فكّرت طويلاً بهـذا الشأن تحقّقت ان الاختلاف بين المسيحيين ليس على الافعال بل على الكنى والاقوال لانهم قـد اجمعوا رأياً واعتقاداً أن المسيح إلهٌ تام وانسان تام بدون اختـلاط ولا امتزاج ولا تبلبل الطبائع : فهذا يكنّي المثال الاتحاديّ طبعاً وذاك يسمّيه ذاتاً وذلك يدعوه اقنوماً . فلمّا رأيت المسيحيين على اتفاق تام غير منفصم العرى استأصلت من قلبي عروق البغضة بالكليّة ونبذت تماماً أمر المجادلة في الايمـان مع ايّ امرء كان . وحرصت فقط ان احوز حكمة اليونانيين اعني الفصاحة والطبيعيّات والالهيات والرياضيات والاشكال (او علم الهندسة) وعلم الفلـك وحركات الكواكب . وبما ان الحياة قصيرة والعلوم كثيرة اكتفيت ان يكون عندي من كل فنّ خبر ، فكان مثلي بذلك مثل الغريق في البحر يمدّ يده الى هنا وهناك رجاء ان يتعلّق بما يمكّنه من النجاة ولم افز من علومنا وعلوم الاعاجم بما كنت اطمح اليه الّا وقد اوشكت التلف حتى لم اعد استحسن وصف ما نشبت به من الفخاخ لئلا آذيَ سمع الضعفاء . وباختصار القول لولا ان الربَّ قوّى ضعف ايماني في الازمنة الشديدة وهداني الى اعمال الفكرة في كتب العلماء مثل الانبا اوجريس[1] وبعض العلماء الغربيين والشرقيين ، منتشلاً اياي من وهدة الهلاك ، لكنت يئست من الحياة النفسيّة ، لا الجسديّة . فأكببت على درس هذه الكتب سبع سنين وقد كرهت نفسي سواها حتى اقتبست منهـا شيئاً ، لكن ليس لي بل للذين يرغبون شديداً في الاستفادة مني فشغلني ذلـك زمناً

1) هو احد العلماء الذين عاشروا السياح والنساك وقد ورد ذكره قبلاً وذكره مراراً كتاب بستان الرهبان لما له من الحكم والاراء الصائبة .

طويلاً ، حتى كنت احياناً اسقط في الكفر قائلاً : ما أعظم غصص هؤلاء المتوحدين ، اذ تسمع لطاحونهم جعجعة ولا ترى طحيناً : لان كلامهم لا يشفّ الّا عن افكار عقيمة . وصار عقلي مرارةً لي (كما قال الشاعر : علّتي معرفتي . يا ليتني لا اعرف . وناجاني (عقلي) قائلاً : لا تسفه ولا تظن ان كل ما لست تعرفه ، ليس بموجودٍ لان ما تعرفه هو قليل جداً ، بالنسبة الى ما لست تعرفه . فكنت عند هذا اعرّج على الجنبين ، حتى أشرق عليَّ شيء من اشعة النور المحض لامعاً لمعان البرق ، فانجلى شيء من الغشاوة التي كانت تغشي عينيَّ ، فأبصرتُ . ولكن بمقدار : ولكي أبصر اكثر، شرعت اصلّي بدون فتور ، راجياً رفع السياج المتوسط فأرى ، لا كمن في الظلام ، بل عياناً، ذلك المحب غير المنظور .

فاليك ايها الحبيب هذه القضايا القليلة التي مثلها يمثّل بعض ما يضيئه وميض البرق في الديجور المدلهمّ :

١ً : ان النفس النقيّة لا تتعمّق في المعارف حبّاً للمجد الذي يحوزه العلماء في هذا العالم ، بل يتضاعف شوقها الى مشاهدة وجه سيد الجميع ، فتستطيع ان تلج في السحابة الالهيّة[1] .

٢ً : لقد ضلَّ الذين ظنّوا انهم بلغوا درجة الكمال بتعمقهم في علوم قومهم وعلوم الاعاجم ، ولم يطهّروا نيتهم ، لانه ماذا ينفع اتقان المرآة وترصيعها باللآلئ الثمينة والحجارة الكريمة اذا لم تكن نظيفةً وما احسنها مجلوةً ولو شابها وسخ الصناعة .

٣ً : كيف يعدل علمُ من عرف من الكتب كيفية عمل هيكل سليمان علمَ من دخله وشاهده بامّ عينه وعدَّ عدداً كناناته وقواريره وكواه المصمتة وشرفاته ودهاليز اساساته ونرجسه وسوسنه واجنحة كروبيه ونقوش عتبه .

٤ً : ان علماء كثيرين وآباء عديدين حرصوا على جمع الدرهم وهاموا ايضاً بلذات سواه فقالوا : كما اننا نعدُّ العلف للبعير الذي هو مركوب الجسد ،

[1]) هي السحابة التي تستشفها عين الايمان فترى فيها عظمة اللاهوت وبهاء الملكوت . وهو نوع من الصوفية المنتجة (راجع المشرق ٤٩ (١٩٥٥): ص ٤١١) «صوفية الظلام في عرف القديس غريغوريوس النيصي» .

كذلك نعد القوت للجسد الذي هو مركوب النفس . ولم يضرّ بهم قولهم هذا كما لا تضرّ اصحاء المزاج المآكل التي تضرّ بالمرضى. لذلك ذابوا سلًّا فصدّق خبرهم خُبرُهم حتى لم يشعروا بمرضهم .

٥ : لقد ضلّ من ظنّ ان تلوّن قوس قزح متأتٍ عن تلوّن اشعّة الشمس اذ لا يكون ذلك الّا بتنوّع اقسام السحاب من مثل كثافة وتخلّل وتلبُّد وشقوق .

٦ : لقد ضلّ ايضاً من ظنّ ان الشمس تضيء على الاجسام القاتمة وتنيرها، لكي تتمجّد الشمس وتمدح وتبجّل وتعظَّم ، اذ ان المنير لا يكتسب ذلك من المنار بل بالعكس .

٧ : كما ان الجائع لا يشبع من المياه والظمآن لا يروى من الخبز ، كذلك العالِمُ الذي يرغب في ان يحدق بالسحابة القمرية، قلّما يلذّه استماعُ الكتب

٨ : معرفة الله بالنسبة الى معرفتنا بقياس قوّته تعالى الى قوتنا .

٩ : ان الله تعالى هو ضابط الكل ، فكيف يتسنى للعقل ان يحوزه والمحوز يحوز شيئاً من الحائز ولا يحوزه كلّهُ .

١٠ : مهما فكّرت في البيّنات والآيات والشهادات لتعرف الله تعالى ، فتكون كمن يطرّق ويصفّح حديداً بارداً . ولا يكون فيك الى ذلك الحين ، مثل حبّة الخردل من الايمان .

١١ : مشاهدة الله تكون باغماض الحواس وفتح طاق القلب ورفع الستر عن اللبّ كما قيل : سُدَّ الكوى فيضيء المسكن .

١٢ : ان الذين يغرقون في السحابة يدركون عمق حكمة الله وغناها بدون توسُّط كثرة الافكار .

١٣ : كما ان العقل في هذه العاجلة ، يدرك ضرورةَ المبادئ الاولى كقولك : الكل اكبر من الجزء. والواحد هو نصف الاثنين ، كذلك متى ولج العقل السحابة الالهية في الآجلة يعرف ضرورة احكام الله الخفيّة وغير المدركة .

١٤ : كما ان الحواس لا تستطيع ان تدرك الصور العارية عن الهيولى . وكما ان العقل لا يقدر ان يخلع نعلي الجسد من رجليه ، كذلك لا يقدر ان يدرك الصور المكنونة في السحابة الّا على شكل مبهم وغير مستقيم .

١٥ : انَّ العقل وهو في السحابة ، اذا رأى الجمال اصاب لذةً لا تُنعت . أمّا اذا اصاب هذه اللذة بدون تلك المشاهدة ، فتكون لذته لذَّة من يسمع بجمال جميل ، لا لذَّة من يرى جماله بامّ عينه .

١٦ : انه حينما تنفتح عينا العقل بقدر قابليَّتهِ لذلـك ، تفيض عليه النعمة باشعَّة مجيدة وملائكيَّة ، فيجوز الى ابنـاء الملكوت حيث ينتظم باجواقهم الشريفة ، فرحاً معهم نابذاً العالم وكل ما فيه .

١٧ : من لم يتفرّس في داخل قدس الاقداس ذي الغمام فهو ، وان اعترف بلسانهِ وآمن بجنانهِ وقد حسب نفسهُ عن المؤمنين فقد كذب كذباً .

١٨ : ان من يولد أعمى ، فهو وان صدَّق بوجود اللون الابيض والاصفر والاسود والاحمر . والاصمّ ، وان صدَّق ان سمعه يلتذُّ بنغمات الاوتار المتَّفقة والاصوات الموسيقية المتَّسقة ، فتصديقها ذلك أقرب الى عدم التصديق ، منـه الى التصديق .

١٩ : اذا لم تكن ، ايها الحبيب ، ذا ايمان صادق فلا تعطِ عينيك وسناً ولا جبينك نوماً حتى تجد محلًّا للرب حيث تقبل الايمان وتعتمد بالنار والروح[١] لا بالماء .

٢٠ : قد صار الايمان الصادق الى الانبياء والرسل ، بفيض النور العلوي بدون تعب والتماس . أمّا النسَّاك فقد توصَّلوا من الايمـان الظلّي الى الايمان الحقيقي بالالتماس والتعب والتلهف والتلمذ .

٢١ : اجتهد بقراءة ما يخشع وعمل ما يوجع ،لتتَّسم بسمة ابناء الملكوت . فان كثيرين عملوا كثيراً ، انما كان ذلك منهم بدون افراز . فلذلـك لم يدركوا طريق الحق ولم يبلغوا ميناء الحياة .

٢٢ : لا يُقتنى الكمال بالاعمال الجسدية فقط بل بجهاد الضمير النقي ونزاهته . فاقرن إذن عملك الجسديَّ بافرازك الروحيِّ فتفقه من ذلك ان تخدم بالجسد والضمير .

٢٣ : ان المحبة هي بغيةٌ شديدة في المحب المحبوب ، يبغي بهـا المحبُّ

١) تلميح الى ما قاله القديس بولس لاهل افسس (اعمال الرسل ١٩ : ٢-٦)

بكليته انعطافَ المحبوب اليه فتكون البغية والانعطاف شقيقين يوجد احدهما حيث يكون الاخر ، فمن يبغِ اذن يجد ومن يسلْ ينلْ .

٢٤ : كما ان الحديد الخالص ينجذب بالمغناطيس ، اللهمَّ ان لم يخالطه جوهر آخر كذلك العقل ينجذب بكليته بالذات الالهية السامية ان لم تعتره الآلام اللحميَّة .

٢٥ : كما انه يصعب تمحيص الحديد من الجواهر الاخرى التي تخالطهُ ، مثل الذهب والفضَّة والنحاس والآنك ، كذلك تصعب عصمته من القبض عليه باليد وسائر العوائق الخارجة التي ليست من جوهره . وكذلك تصعب تنقية العقل من العوائد البهيميَّة والحركات الاثميَّة ، التي يتبع طاعونها العقل طبعاً وتعسر عصمته من الارتباك بالزوجة والبنين والمال والامناء .

٢٦ : عندما يدرك العقل انه يوجد كلمات لا يستطاع النطق بها واعمالٌ لم ترها عين ولم تسمع بها اذن ولم تخطر على قلب بشر (١ كور ٢ : ٩) حينئذٍ يعتلي على ما هو خارج السحابة من الدرجات ، واضعاً رجله على الدرجة السفلى التي في داخلها .

٢٧ : متى سمع العقل الكلمات التي لا يستطاع النطق بها ولا يمكن الفم ان يوضحها ، ومتى رأى الامور التي لم ترها عين ، يقطن حالاً ، في مسكن العليّ ويحلُّ في جبله المقدس .

٢٨ : البيعة تقول : انه « تعالى » واحد في ثلاثة والثلاثة واحد انما ليس هو ثلاثةً من حيث هو واحد ولا هو واحد من حيث هو ثلاثةٌ ، لان ذلك غير ممكن ...

٢٩ : ان للثلاثة بذاتها معنى الواحد الخاص الذي لا يقبل تعدُّد الثلاثات الكثيرة وبهذا المعنى هو واحد .

٣٠ : وبما ان العليَّ ذو ذات وكلمة وحياة[1] فهو واحد بالطبع (بالجوهر) وثلاثة بالاقانيم .

٣١ : ان الكلمة وهي مكنونة في ذلك الناطق ، تبدو كأنها مولودة

١) كنى بالذات عن الآب وبالكلمة عن الابن وبالحياة عن الروح القدس .

من مستودع . امّا الحياة فهي ظاهرة في الواحد بقدر وحدته وهكذا فالابن مولود وليس بمنبثق والروح منبثق وليس بمولود .

٣٢ : انه وان كان الباري تعالى يفعل اختياريًّا ، فمع ذلك لا يستحيل على البرايا ان تستوضحه بتوسط اي جسم كان .

٣٣ : اذا كانت لم تُجحد قضية ظهور الباري تعالى في العليقة لموسى ، اذ أسلمه الاحكام والشرائع للاسرائيليين ، فكيف تُجحد ظهور الله للعالم بانسان كامل ذي نفس ناطقة عاقلة .

٣٤ : من ليس وجوده من ذاته بل من علّته ، فلا يستطيع ان يكون علّةً لوجود آخر ، بل وسيطًا ، لكنَّ الله تعالى وحدهُ هو علّة الجميع وهو تعالى يعمل الكلَّ بالكلّ .

٣٥ : ان القمر يستنير من الشمس ، فيضيء نورهُ الارض ليلًا فكيف وهو لا يملك النور بذاته يمكنه ان ينير الارض فليس هو اذن علّةً بل وسيطًا بين العلة والمعلول .

٣٦ : كما ان المرآة خالية بذاتها من كل صورة ومثال وبحسب نقائها وصقليا تتمثّل بها الصور الخارجة عنها ، كذلك العقل عارٍ من الصورة وبحسب نقاوته من الادناس الهيوليّة تتمثّل به الصور الغير الهيوليّة .

٣٧ : ان نسبة مملكتي السما والارض الى ملك الملوك وسيد السادات وإله الآلهة ، نسبة الرسوم في المرآة الى المرآة والرسوم خارجاً عنها .

٣٨ : كما انه ليس من وجودٍ ثابتٍ لما يكون في المرآة من الصور بل وجود هذه الصور الاصليّ يتبع ما يتمثّل منها في المرآة وهو خارج عنها ، كذلك ليس من وجود حقيقي للملكتين الجسميّة واللاجسميّة بذاتها ، بل وجودهما يتبع وجود علّتها الاولى .

٣٩ : ان وجود الحقّ الاولّ ليس بزمنيٍّ حتى يقال انه كان ولم يكن معه شي ، او انه كان وليس معه شي . وان قيل ذلك فللعقول الغير المهذّبة يقال .

٤٠ : ان مَن لا يزال يمتص الحليب كالطفل ، لا يغتذينَّ بغذاء البالغين . ومن ينظر كالخفاش ، لا يحدقنَّ بالشمس ، فمن هو هكذا لا يتوسعنَّ بمعنى القضيّة السابقة ، فلا ينبذه ولا يجتذبهُ بل يحفظهُ ممثلًا بقلبه الى ان يبلغ اشدَّه .

٤١ : متى انفتحت كوى قلبك ، تطير ووجهتك الملكوت ، حيث تشاهد كل هذه الاشياء عياناً ولا تحتاج ايضاً الى وصفها الك بل تكون مؤمناً لا غير مؤمن .

٤٢ : بحسب تغيير الابراج القمرية بالنسبة الى الشمس ، تتغير اضواء القمر فيثبت نوره بثبات ابراجه ويزول بزوالها .

٤٣ : كما ان مقام القمر نظراً الى الشمس ليس هو بواحد دائماً ، بل يتغير من وقت الى آخر ، كذلك نور العقل يكبر او يصغر نسبة الى ما يعرض له من التقلبات .

٤٤ : انه ، وان كانت الجواهر تصير ازلية في العالمين ، مع ذلك بقدر ما يكون العقل متعلقاً بالمادة ، تكثر مفاجعه ومتى انعتق منها ندرت تغيراته ، حتى لا ينقص لمعاناً عن شمس البرارة العظيم .

٤٥ : ان الذات الالهية التي تراءت للسماء والارض وما فيها قبل الجبال ، هي غير التي ترى الآن وهذه غير التي كانت ترجى . وبما ان تلك زالت ، تجددت هذه وتلك المستقبلة تتجدد .

٤٦ : بما ان الموجودات الزمنية جميعها مشتركة في الانواع ، فيظن غلطاً ، ان لها ذاتاً واحدة ، كمن يرى يوحنا مثلاً ، ثم يرى يعقوب فيظنه يوحنا الذي رآه اولاً وكلاهما مشتركان في الطبيعة البشرية .

٤٧ : ان ذوي الفهم الصبياني ، متى شاهدوا ضوء المصباح نفسه ، يظنون ان للضوء من بداءته الى نهايته ذاتاً واحدة . أما العقل الرجلي (الناضج) فيعرف انه يوجد ويتجدد ذوات بقدر الاجزاء والاقسام من الزيت التي تذهب وتتبدد .

٤٨ : ان العقل يتصور ان زوال الذوات وتجددها صعب جدا . وبعد دروس كثيرة وتخرج متقن ، يستطيع العقل ان يستدل على حقيقة ذلك . اما العلماء فيفقهون ويعلمون ان الباري تعالى يبدأ في كل دقيقة ذاتاً جديدة لكل مبروء .

٤٩ : ان من يرون بعين الروح زوال الذوات وتجددها يهتفون صارخين : ان الله تعالى الذي يصنع الكل بالكل هو واحد احد به نحيا ونتحرك . ومنه وبه كل حركة وكلما حياة العقل والنفس وكل طبع .

٥٠ : ان علم الكاملين هو علمٌ موحىً وكل علم موحىً هو علمٌ نبويٌ.

٥١ : ان علم الكاملين هو علم نبويٌ ولا يُقتبس قط او يُتقن علم واحد نبويٌ من تدبُّر الكتب ودرسها .

٥٢ : ان امير الانبيا. قد كان يوماً الكن ألثغ ثم اضحى كاروزاً تتدفّق من فيه انهار ما. الحياة بحسب ما كانت تقتضي الظروف التي كانت تطرأ عليه.

٥٣ : من لم يذق محبة مولاه لا يستطيع ان يدرك قوة كلمات الحبيب لانها سريّة وكلمات روح لا ينطق بها برموز سريّة .

٥٤ : من يكتب اسرار الروح والروح لم يستكتبه فهو نحاس يرنّ او صنجٌ يطنّ لان الروح لم يمزج حلاوته بكلماته .

٥٥ : من يتعلم اسرار الروح من الروح ، يجتني سامعو كلامه كلَّ لذّة وكلمته تستأصل من افئدتهم جميع الآلام .

٥٦ : من يرغب ان يقرع باب الملكوت يكفيه ليعرف طريقهُ جزءٌ صغير من كلام العلما. ، يلهج به كثيراً ويفكّر به طويلاً . فلا يضيّعنَّ اذن أيامهُ ويبدّدنَّ اوقاته بدرس الكتب العريضة العلوم المسهبة الكلام .

٥٧ : ان وجد مكتسب الجزء الصغير من علوم الكاملين معلماً فبكلمةٍ من فيه يهتدي الى طريقه . والّا فليكحل بصيرته بإثمد الزهد فيرى الطريق القويمة.

٥٨ : حتى مَ تبغي مرشداً يفتح لك في عمق قلبك باباً الى الملكوت . نظّف يا صاح مرآة عقلك من الوسخ فتريك صور الملكتين وتهديك السبيل الموصل الى مملكة السما. ثم تبلغك الى مملكة الله تعالى .

٥٩ : ما زال الظمآن لا يستطيع ان يَرِدَ المياه فلا يقدر المرشد ان يورده اياها أو يحمله اليها لكنّهُ يستطيع ان يعلّمه كيف يَرِدُها .

٦٠ كما لا تفيد الريح وإن موافقةً السفينة المثقوبة كذلك لا يفيد المرشد ولو ماهراً القلب المستهوى باللذات .

٦١ : كما ان الوعا. لا يعي المياه منقلباً كذلك لا تستقرُّ الموهبة السماوية في النفس مطرقةً الى الارض .

٦٢ : انه لينفع كثيراً التشبه بالانقيا. القلوب الذين طهّروا انسانهم

الباطن من كل دنس وقبلوا كلّ موهبةٍ كاملة تهطل من لدن ابي الانوار .

٦٣ : انه لسعيد واهل لكل غبطــة من وجد استاذًا يفوق نور شمسه ضوءَ سراجهِ واختُطف بنور سيده ومات عن العالم وعاش لله تعالى .

٦٤ : ان الحياة الحقيقية هي ما يتصّه الكاملون من ثَدْيَي العناية السامية. أمّا معلمو الناموس والكتب فليس فيهم من هذه الحياة سوى الاسم والوسم .

٦٥ : لو لم ينهض الربُّ لنصرتي وينجيني من ضلالة العلوم المختلفة والاعمال المتباينة فملت الى تدبُّر مدارج العلماء مدى سبع سنين ، لكانت استولت عليَّ العوائد الشريرة التي انشبت براثنها بكثيرين .

٦٦ : لعلّك تقول : هل من علامة فارقة بين العالم الحقيقي والعالم المرائي المخادع ? فاجيب : ان لذلك علاماتٍ كثيرة لكنّها قد تخفى لاول نظرةٍ الّا انها تنجلي مع مرور الزمان .

٦٧ : من لم يذق لم يعرف ومن لم يأكل لم يشبع من نجوى ، من اكل فشبع ومن لم يشرب لم يروَ من خطاب ، من روي ومن لم يخبر الامور بذاتهِ لا يلذه اختبار من قتلها اختبارًا .

٦٨ : ان البعض من العلماء الذين تخرَّجوا بالكفاية في الكتب المقدسة وتفاسيرها لم يحرصوا ان يتعلّموا طريق الملكوت من رصفائهم ولم يتبيّنوا ، ولو ماهرين ، ان علمهم سماعيٌّ وان علم العلماء ولو بليدين هو نظريٌّ .

٦٩ : اني بسيدي سيد السادات اقسم لكم ايها العلماء العجيبون : انكم ما زلتم لستم كالاطفال خالين من كل عجبٍ وكبرياء ، فــلا تزالون غير عارفين جهة الملكوت فكيف اذن تتجاسرون ان تمشوا في طريقة آملين ان تبلغوه آمنين بل لا تزالون بعيدين عنه بقدر ما تظنون نفوسكم قريبين منه .

٧٠ : من ادراك النفس الناطقة وتحريكها للجسد مركوبها نعرفها معرفة بسيطة لان للحيوانات الغير الناطقة كلا النوعين : اما عدم فسادها بفساد الجسد فيثبت حقيقته علم العلماء الدقيق النظر والعميق البحث من لاهيوليتّها .

٧١ : ان النفس الناطقة تقبل العلوم الهيولية بيد انه لا احد هيوليٌّ يقبل العلوم العقليّة لانها لا تتجزأ وكلّ هيوليّ يتجزأ ولا يمكن ان يحلّ الغير المتجزئ في المتجزئ .

٧٢ : ليس من نفس هيوليَّة . وكل قابل الفساد هيولي هو ولكي يفسد يلزم ضرورةً ان يكون فيه شيء كالصورة وشيء كالمادّة ليقبل فساد الصورة.

٧٣ : ان البرايا تُعرف من بارئها كما يُعرف البنّاء من البنيان وهذه معرفة عامّة بسيطة تتسنّى حتى للسذّج . امّا نظر الحكماء الدقيق فلهُ حكم خاصّ يعرف به الواجب الوجود من الموجود هكذا: اي ان الموجود اذا كان واجب الوجود فذلك المقصود واذا كان مستطاع الوجود فيحتاج الى الواجب الوجود فيوجد اذن واجب الوجود .

٧٤ : وللإمام الفهّامة معرفة اخرى اخصُّ تعتني بتنقية الافكار واماتة الجسد واغماض الحواس وقطع الرباطات فمتى استنار القلب بمثل هذه المعرفة يتمثّل ملكوت الله في داخله وداخل امثاله من الائمّة فلا يعودون الى طلبه هنا او في اورشليم .

٧٥ : ان العقل الذي يكون قد اتّقد حبًا بسيده اذا انتصب تحتهُ خطًا عموديًا يكتسب حالًا شيئًا من ضيائه وبينا يكون مظلمًا يستنير بطرفة عين كما يستنير المصباح المطفأ فورًا ما يمسُّ المصباح المشعشع .

٧٦ : فوق وتحت وأمام ووراء هي أسماء تختص بالاشياء ذوات الاجسام لا بغيرها انّما بسبب ندرة الاسماء وفقر الكلام يتصرَّف المتكلم بالاستعارات.

٧٧ : من يسير مستصحبًا بنور سراجه يستقرّ في ديجور مدلهمّ ويمشي في الظلام لا يعلم اين يذهب . ومن تخفي شمسهُ سراجهُ يسير على ضوء النهار لا يعثر ابدًا .

٧٨ : ما اسرع زمان هذا النور واضيق وقته وأقصر نهاره وأخصر ساعاته ومع هذا لا يستأهله الّا نفر قليل ، امّا انا فوسط ظلمتي هذه قد رأيتني كانني والشمس تفجر اشعتها الصبح العميق حوالي أفقي أو كالبرق الذي يمرُّ سريعًا.

٧٩ : ما زالت شمسي في برج الجدي فهي مثلي وإن بعيدة عنه الى الجنوب ولم تبلغ أفقي . فاذا اشرقت عليّ ولو قليلًا بنورها الصادقة فاتشوّق متخشعًا لا كمن لا يعلم بل كمن اعلم ان اسجد له تعالى بالروح والحق .

٨٠ : اخبرني علّامة سعيد قال : « اذ كنت بعدُ مبتدئًا بتأمل النور غير المدنو منه ، ارتخت مفاصلي وجنَّ عقلي ورأيتني كاني راكب فحلًا شبقًا يغرق

في العدو بكل قوته ولم اعلم هل كان ذلك بالجسد او بغير الجسد لاني كنت كمن يطير في الهواء . ولمّا سكن جأشي وثاب اليَّ عقلي ، اخذ لساني يتلجلج قائلاً : قد صار ما صار ولستُ أُخبر بما صار اسمع يا صاح . واسكت ولا تردْ أن فسّر وافصح عن ذلك وأوضح » .

٨١ ثم بعد ان تقوّى نوعاً عاد فقال : لقد جاشت بي محبّة مولاي ومرات كثيرة لا تدعني أُتمم واجباتي بل اخرّ على وجهي كميتٍ فيسخن الجسد وتكثر زفراتي ويناجيني فؤادي قائلاً : الى مَ انت في هذا حكم الروح وتلهفهِ وماذا ينفع تذكُّر الحبيب ، والمحب في قفص التمييز ؟ »

٨٢ : ثم زادَ قائلاً :« انني لمّا بلغت اشدّي صدر امر الملك السامي ذي السلطان الابدي والملك الدهري آذناً لي بالدخول فاخذ العقل ، فورَ هذا ، يكسّر ذلك القفص طائراً الى وكنه القديم حتى وقف امام ملك الملوك وسيد السادات حيث نال لديه حظوةً كاملةً » .

٨٣ : احرص لئلا تكون شيبتك سبباً لتضليلك ، فتظنَّ انك من هذه المباني تفهم المعاني ؟ لا يا اخي ، بل ان كنت راغباً في ان تحيط علماً بغوامض الاسرار ، أبغضْ العالَمَين كلاهما ودع الموتى يدفنون موتاهم ، مبتغياً الحيَّ الابديَّ فقط الذي اذا تعبت الدهر كلّه في التماسه ، تحيَ الى الابد .

٨٤ : ان السفليين يلتمسون هذا العالم والعلويين يرغبون في العالم المقبل ، لا يفصلهم عن محبته ، لا هذه الاشياء الحاضرة ولا المستقبلة ولا خليقة اخرى وبقدر ما يُحتقرون لاجل محبّتهم له ، يزدادون تعطُّشاً اليه .

٨٥ : كل نفس نقيّة تشتاق مقرّها القديم عائدة اليه بالطريق الاقوم والاقصر ؛ ذلك رمزٌ الى ان الابرار يمرُّون على جسر النار والنار تحلّق على خطٍّ مستقيم .

٨٦ : ان العقل غير المدنس يهتف وهو في الطريق قائلاً :« أينَ لي طريقك فاسير فيها وأحيني بسبلك ومتى بلغت الموعد احفظني مثل حدقة العين واظلّني بكنفك » ثم يسأل الله تعالى صارخاً :« احمني اللّهم من قوات الجسد الاتية التي راشتني بسهامها ونجني من الآلام السمجة التي ثقلت عليّ وطأتها » .

٨٧ : قد يكون نظر العين صادقاً كما لو نظرت البحر اكبر من الحوض

وقد يكون كاذباً كما لو نظرت الشمس كالترس والكوكب كالدينار وانما ذلك لكون العين لا تنظر البعيد مثلما تنظر القريب .

٨٨ : قد يصيب العقل بحكمه كما لو حكم ان الله تعالى واحد واجب الوجود وبارئ ازلي. وقد يخطئ العقل كما اذا افلتَ من نير الجسد فرأى الله تعالى كما هو .

٨٩ : كما ان الخفاش لا يستطيع ان ينظر الى الشمس ، كذلك الانسان، ولو باصرًا ، فلا يرى الله تعالى كما هو ، بل يستشفُّ التواريا في العليّ بالسمع لا بالنظر . والعالِمُ يرى شيئاً من محاسن جلاله تعالى لا كلّها. لانها لا تدرك.

٩٠ : عوّدْ نفسك ان تصدّق ما تسمعه من الصادقين ولو كنت لا تعلم حقيقتَهُ ولا تطلب برهانه المنطقيَّ . هذا ما يليق بالصدق تجاه موهبة البارقليط، روح الحق الذي هتف نحوك قائلًا : هو يعلّمك ويذكّرك كل شيء. (يوحنا ١٤ : ٢٦) .

٩١ : ان قيامة الاجساد تكون بوحدة النفس المثّاة وقيامة النفس بالحلال وحدة الجسد وذلك يكون بعد شدّةٍ وفيرة فتظلم الشمس والقمر اللذان هما العيون وتتساقط الكواكب التي هي بمنزلة الحواس وتتحرّك القوى التي تحرك الجسد وترتجف سائر الاعضاء.[1] فيكون ان النفس الطاهرة التي نهضت من سقطتها تسير الى الخدر السماوي الموعودة به على ضوء علامة ابن الله (التي هي الصليب مم) .

٩٢ : يُعرف تباين نفس الفرس والقنفذ والانسان من اجسادها . والائمة يعرفون المنزلة التي تليق بكل نفس بشرية من حركاتها فيميّزون بين النفس التي مقرّها قدس الاقداس الداخلي وبين النفس التي مقامها بمعزل عن السحابة . ويعرفون ايضاً المتوسّطات وسائر السفليّات المحرومة من النور تاماً فيشقون مع الاباطسة حيث لا يفتقد الرب .

٩٣ : بعد ان تقترن اعمال النفس والجسد وتصير لك سذاجة سمعان الطبيعيّة او المشاكلة لها ، فاعلم ان ليلك قد ذهب وحزنك قد زال وفجرك انبثق وصباحك تبلّج فينشر عليك سيدك نور الايمان ويعزّيك بأوحيته .

١) شرح لما جاء في سفر الجامعة ١٢ : ١-٨ .

٩٤ : اني بما قلت واقول وسأقول لا ارذل التواريا . كيف لا وهوذا علماء صرحاء وحكماء دخلاء قد وقفوا على ما سما من المعارف ، لكني اذ ارى نفرًا منهم يجرأون على ان يزنوا كل شيء بميزانهم ، لا يروقني افتخارهم هذا ولو كان ميزانهم عادلًا وقسطاسهم صادقًا ، اذ لا انسى امور العالم المزمع التي لا يتسنى ، ولو تبعيضًا ، ادراكها جليًا .

٩٥ : متى أرحتَ عقلك من «السعي» في ادراك المطالب العويصة بالبراهين المنطقية وامتلكت سكونًا وهدوءًا واعمالًا متقنة ، فأطل روحك ولا تنِ في طريقك حتى تشرق شمسك ويضيء مساؤك ، فيريك ذلك جمالك ويحرّرك من عبوديّة الزمان واسترقاق المكان .

٩٦ : متى تجلّت للمحبّ شمس الحبيب في يوم لا يوم له فأبصر العروس السليمانيّة تتباهى متجلية بدون حجاب فتدخله بذاتها السبعة الاعمدة مظلّلة اياه محبوبًا فوق الجميع . وتوفّق بينه وبين كواسر الطيور وضواري الوحوش اذ تستنشق هذه منها رائحة باريها الذي تشعر به الطبائع غير الحاسة وتعنو له الابالسة وتخدمه الملائكة .

٩٧ : عندما يبلغ هذا الموعد السعيد لا يعود يشرب من الصخرة او البئر بل من المياه التي يعطيه سيده فلا يظمأ ايضًا ، بل تكون فيه ينابيع مياه تنبع الى الحياة الابدية .

٩٨ : ان المبادئ المتقدّمة تفيد فقط من تخرّج وتعمق في معرفة الاعمال الالهية والبشرية وتلهف اشتياقًا الى ان يرى جليًا ما هو من قبيل التراريًا . ومن فقد هذا الشوق فليضاعف همّته ويكثر تأمله في هذا الكتاب بتبصّر لئلا يهيّج قلبه بقراءة بهيميّة .

٩٩ : ان اسباب محبّة ما هو جميل متنوّعة وكثيرة جدًا ، فلا قِبَل لي أن أصفها ولا يسعني الزمان ان اعددها اذ قد أعياني الكلام فمال قلبي الى ما هو أفضل لي . والآن فمن استطاع ان يثبت في حرب الحبّ فليثبت ومن لا يستطيع الى ذلك سبيلًا ، فليأكل بقدر قوته فقط وعلى قدر بساطه فليمدّ رجليه .

١٠٠ : وهذا الزرع ولو ضاهى حبة الخردل صغرًا ، فمع ذلك من حيث إنه لم يزرع على قارعة الطريق او على الصخر او بين الشوك ، بل زُرع في ارض جيّدة ، فانه يربو وينمو حتى يصير شجرةً عظيمةً تأتي طيور السما، تعشّش في أغصانها . ومع هذا اذا لم يُعطَ الانسان من فوقُ فليعتمد شيئاً ممّا له خاصةً .

قد تمّ كتاب الحمامة هذا في تدابير المتوحدين العجيبة
بعون الهنا سيد الجميع المسجود له وبقوة البارئ
وغوث الروح القدس فله المجد والاكرام
والاعظام الى ابد الابدين .
آمين

قصّة في طفوليّة العقل لابن العبري

بقلم

الابوين مبارك ثابت السديراني ، ومبارك ابي مارون المزرعاني الراهبَين اللبنانيين

كنتُ وانا حديث السن العب مع رفقةٍ لي في الشوارع متمرغاً في الاوحال متكسّباً بالاسمال فالتفت بغتةً فاذا بزمرةٍ من الاحداث يمضون في طريقٍ الى جانبي وتفرست فيهم فاذا هم كرماء الارومة فضلاء الجرثومة فحسبتهم شموساً واقماراً . تبعث وجوههم انواراً . استعاروا من الملائكة الجمال . واصبحوا ملوك الكمال . حداثة جملتها النعمة . ولم تشوه بهاها وصمة . فاستقبلتهم اجمعين بعاطفة الشوق والاكرام . وابتدرتهم باذكى عبارات التحية والسلام ثم وقفتُ امامهم اريد استعلامهم . وقلت : يا سادة الى اين تذهبون . واي غرض تطلبون . قالوا إنا الى المدرسة ذاهبون . والى تحصيل العلم قاصدون . امَّا انا فلما لم اكن قد شاهدت امثالهم . فلم افهم على الفور مقالهم . فقلت : يا سادتي اسمحوا بافادتي . ما المدرسة المذكورة . وما منافع العلم المشكورة . فاجابوا : استاذنا قد أمر . ألا نكشفَ الخبر . وحضنا التحضيض الشديد . وحثنا بالوعد والوعيد الا نوقف على اجتهادنا احداً . او نمدّ لرفع الستر عن احوالنا يداً فان شئت ان تعلم ذلك يقيناً . ولا تكون كاعمى يطوف الارض حزيناً . فهوذا استاذنا فاهرع اليه . والتمس العلم من شفتيه . واحبس سمعك عليه فهو قمين بان يكشف لك عن الحق النقاب . ويهديك من الضلال الى طريق الصواب . قالوا ذلك وساروا . وباجنحة الاسراع طاروا . ولما وعيتُ جواب . جمهم وانصرف . وغاب عن ناظري بنو الترف . تضرَّمت فيَّ نارُ حيهم . وتحركت بي نسمةُ الهيام بهم . ورشقت نفسي بسهم الملام . لايجازي معهم الكلام . واني لم أتجر اتجارهم . ولم اقتف آثارهم . فانكرت المدينة مقامي . وخرجتُ انشدهم في المرامي . ولبثتُ في طلبهم طويلاً . فلم اجد الى لقائهم سبيلاً . ثم نظرتُ في صدر الفلاة . شيخاً عليه مظاهر الهيبة والجلال .

واكلة الرصانة والكمال . تريد محاسنهُ الباهرة . حلة موشاة فاخرة . وقد ضُربت فوقه مظلةُ السحابة رمزًا الى ما له من المهابة . وجههُ يبعثُ الانوار . كأنه كوكب النهار وهو على سلطان المساء قابض . وكالليث في ذلك القفر اثوابه كالثلج بيضاء . وبهاؤه ساطع كالبدر في السماء . فادهشني جلاله . واذهلني جماله . وهممت بالتقدم اليه وانا وَجِلٌ مذعور . وعرتني في الدنو منه خشية اسرائيل من الطور . فسجدت له من بعيد . ورفعت ذاتي نحوه بالقسر الشديد . ولما كان رؤوفًا يمقت المتصلف وينفر من المتعجرف . لقيني ببهجة وهشاشة . ودرجني اليه بحلم وبشاشة . وجبر قلبي من كسره . وحله من عُقال اسره . واقامني مستقيمًا لئلا أميل . وسكن روعي ببذل الجميل . وشرع يتأوه وهو حزين الجلي . وجلّب من نقصي وذلي . ويقول : آه . ما كل رجل تطيق السلوك هنا . ولا كل طالب يدرك عندنا المنى فان الرجل التي ما ارشدها التدريب . ولا ثقّفها التهذيب لا تأمن التيه في هذه البيداء . ولا الزلل عن هذه الصفواء . فايُّ ذنبٍ قوي عليك . وحبّبَ ارضنا اليك . فجئتنا لا تعرف الينا مذهبًا . ولا نعرفُ لك مأدبًا . فلما وثقتُ من حبّهِ وايقنتُ قربي من قلبه . نبذتُ من قلبي الرعب . ولم يعُدِ النطقُ عليَّ بصعب . ورأيت اني تسّلتُ كالثوب فابيضتُ . وعادَ اليَّ الروعُ فتقوّيت . وحلّت الدالة عقدة لساني . فجعل يبرز ما في جناني . وقلتُ : ما اكرم زهادك اللائذين بك . واسعد تلاميذك المنضوين اليك . حمدًا لهم لانهم شوقوني الى نظرك . واعدوني لاستماع خبرك . في منزلي حيّوا اليَّ خيرك العظيم . وهدوني الى مقامك الكريم . اما الآن وقد حزت شرف الدخول الى جنتك برضاك وشاهدت عيناي في معرك حلمك وعلاك . فاسألك الا تغلق في وجهي بابك . ولا تلقِ بين حقارتي وجلالك حجابك . وابذر فيَّ زرعك . كما تبذره في حقلك . وتصرفْ بي بحكم فطنتك وعقلك . واقبلني لا كعبدٍ بل كأجير . وكن لي في مقام مدبّرٍ ومدير تجدني قيد لسانك . وطوع بنانك . واهدني في طريق محبتك . وارشدني في سبيل مدينتك . وبررني كبنيك النبهاء . وامحضني كذويك الفضلاء . واغسلني كمختاريك برشاشك الطاهر . واهلني كمحبيك لثوبك الفاخر . كم ملأت جوفي من الخرنوب . ولطخت نفسي باقذار العيوب .

وكم مهدتُ السرير بالقماش[1] الحقير . كطنفسة من حرير . خطئت ولكن لا عن رويَّة . وحقرت ولكن لا عن خبث نية . بل بالحاح طبع ضعيف وحكم ميل عنيف . واذ تقدمت للانتفاع بمثل تلك التقريعات . والتثقيف بمثل هاتيك التوبيخات . عطف الشيخ الصالح عليَّ . ومال بوجهه المضيء اليَّ . ورشَّ على وجهي من ندا. لطفهِ المحبوب . وفرَّج ببشرهِ عن قلبي الكروب . وقال لي : ليبرح الخوف من صدرك . ويملأ الرجاء قلبك . فانت ولد أديب . ومن القلوب قريب . لطفك ممزوج بالعسل . وغير مقرون بالخطل . فقد استجيب سؤلك . وتفسّر لغزك . سلني العظمة فاني معطيك . والجرأة فاني موليك . وانفض غبار الخزانة . فما يحتمله ذوو الحصافة . ولا تقرب الملل. افض عليك المثل . واعلم هذا واطبعه على صفحاتِ قلبك . واجعله دائماً نصب عينك . وهو انك ان لم تصعد معي للسجود الطويل . بعزم غير عليل . وانت مصعدٌ ذاتك معك . ومحاذر لهوك ان يتبعك . الى مدينة القدس اورشليم . حيث اسرار هورشليم[2] في بيعة الابكار السماوية . وجنَّة الابرار الازلية . فلا يتناول حرفاً من علمي علمك . ولا يدرك معنًى من معانيَّ فهمك . ولو جعلت طعامك المدر . وفراشك الحجر . اما انا فاذعنت بسذاجة لما اراد . واتممته بحرصٍ واجتهاد . وقلت : ها انا لديك . وبين يديك . املكني مالك الفاخوري للطين . والام للبنين . ولتكفني نعمتك . ولا تفضحني عظمتك . ولتغذني رأفتك ولا يقض عليَّ عدلك. قلت ذلك وانسلخت عن ابي الجسدي. ولصقت بابي الروحي . وتركت الاشياء . لا التفت الى الوراء . واذ قد نزعتُ العظم من الحروف فررتُ من الدنيا فرار الملهوف . ونجيّت من سلطان المادة فهمي وقلبي واقمت على اتحادي بجامعي وربي .

---

١) القماش ما على وجه الارض من فتات الاشياء

٢) (هورشليم لفظة سريانية ومعناها الصحّة الكاملة)

لعبة أدبية منسوبة الى الجاحظ

بقلم شارل بلّا

لقد تفضل صديقي الدكتور محمد حميد الله فاهدى الي بعد عودته من الاستانة شريطاً مصغراً من مخطوطة محفوظة في مكتبة فاتح (رقم ٣٨٩٨) منسوبة الى الجاحظ كما يتبين من الصفحة الاولى حيث جاء :

« رسالتا ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في ذم العلو[م و]مدحها » .

ففي مخطوطة بديعة الخط[1] والضبط ، عدد صفحاتها ٦٤ ، في كل صفحة خمسة اسطر فقط وفي كل سطر نحو اربع كلمات فحسب .

وقد ورد في أولها :

« بسم الله الرحمن الرحيم – قال ابو عبدالله الدينوري : صحبتُ أبا العباس محمد بن يزيد المبرِّد سنتين ؛ فلما استاذنتُه في الرجوع الى وطني قال : « يعزُّ عليَّ فراقك ، وقد وجب عليَّ حقك ، [. . . . .][2] أتحفَك بكتابٍ ألَّفه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لم يُخرجه الى غيري » ؛ وهذا صدر الكتاب : سئل [. . . . . . .][3] ، فقال : رياضة الصغير ، ومعوِّل الضرير ، لا يُدرَك به الغنى ، ولا تُنال به الدنيا ؛ قال قال[. . . . . . .][4] قال : فالفلسفة الخ » .

يسأله هكذا في الفلسفة والنجوم والطب وغير ذلك من العلوم ويذمّها الآخر بكلام مسجّع يدلّ على انتحال الكلام المعزوّ الى الجاحظ وعدم صحته ؛ ثم جاء في آخر القسم الاول : « فنظر في هذا الكتاب [بعض] مَن يعادي

---

١) « كتبها العبد الفقير الى رحمة ربه الحسن بن علي بن يوسف بن أبي المعالي الكتبي سنة خمس واربعين وست مئة » .

٢) كلمة ممحوة معناها : ينبغي ان .

٣) عدة كلمات ممحوة ولا ريب انها : « الجاحظ في . . . » ، ولا يظهر موضوع السؤال ، فلعله النحو .

٤) لعل هنا نقصاً او تكرار العبارة : « فالفلسفة » .

ذم | مدح

١ ـ ما تقول في القرآن ؟ ـ قال : حجّةٌ على المُلحِد وتبيان للموحِّد ، قائم بالحلال المنزَّل والحرام المفصَّل ، وفاصلٌ بين الحقّ والباطل وحاكم يرجع اليه العالم والجاهل وإمامٌ تُقام به الفروض والنوافل ، سراجٌ لا يخبو ضياؤه ومصباحٌ لا يخمد ذكاؤه ، وشهابٌ لا يُطفأ نوره وبحر لا يُدرك غَوْره ومعدن لا تنقطع كنوزُه ، ومعقِل يمنع من الهلكة والبوار ومرشد يدلُّ على طريقة الجنّة والنار ، وزاجر يصدُّ عن المحارم ومُجير يومَ التحاكُم .

فالمغازي والاخبار ؟ ـ قال : علمٌ مصنوع وكلام موضوعٌ ، يُحتَلّ به العوامّ ويُرتبَط به السوقة ، معيشة خامل وتجارة سائل .

٢ ـ فالحديث والأثر ؟ ـ قال : فيه أخبار الماضين وأنباء الغابرين وقصص الذاكرين وأدب الدنيا ومعالم الدين ومعرفة المفروض والنافلة والشريعةِ والسنّة والمصلحة والمفسدة والجنّة والنار ، إلى صاحبه تُشَدُّ الرِّحال وبه يسير ذكرُه في البلدان ويبقى على مرّ الزمان .

٣ ـ فالفقه ؟ ـ قال : فيه علم الحلال والحرام ومعرفة شرائع الإسلام وبه تُقام الحدود والأحكام ، وهو عِصمة في الدين وزينة في الدنيا ، يخطُب لصاحبه فضلَ الكمال ويخلع عليه ثوبَ الجمال ، ويلبس ثوب العزّ ويبلغ المنزلة القصوى .

فاللغة ؟ ـ قال : علمٌ مخترَع

٤ ـ فالعربيّة ؟ ـ قال : تبسُط من

مدح	ذم
العيّ(1) لسانه وتُجري من الحصر جنانه ، ويتّسع المرء في كلامه وينبسط في مُحاورته ويسلَم من هجنة اللحن وأَوَد اللفظ وتحريف القول ، وبه يخرج عن وقفة المتحيّر وانقباض المتحفّظ وإحجام المتهيّب ، وهي آلة لجميع العلوم وأداة لإصلاح السقيم .	وقياس متّبع ، ثقيلٌ على الأسماع قليل الإمتاع ، علمٌ معدوم وصناعة معلَم .
٥ — فغريب الكلام ؟ — قال : به يكون الأنس وفصاحة المنطق وتبيان الغامض وتخليص(2) الملتبس والتفسّح في الوصف والتبحّر(3) والتصرّف في الشرح والاتّساع في النظم والتأليف والزيادة في سعة الكلام وفسحة المجال ، وأداة من أدوات الكمال وعتيدة من عتائد كِرام العقائد .	فالغريب ؟ — قال : كلام وحشيّ ومذهب بدويّ ، تمجّه الاسماع وصاحبه منسوب الى الصُداع ، معموم ببغضاء السّفلة وتحامُل العامّة .
٦ — فالبلاغة ؟ قال : تشحذ الطبع وتفسح فضل المعرفة وتبعث على الفصاحة وتزيد في البيان وتبسُط اللسان بحسن العبارة عن العقل وتحلّ عِقال الحصر وتُطلق وثاق العيّ وتعبّر عن الحُجّة وتكشف قناعَ الشبهة وتهتك الحجاب دون الحجّة وتأتي من وراء البغية ، وبها يقع الشرح والإفصاح ويكون الذمّ والامتداح ، وتُبرئ المرء بتقويم	فالخُطَب ؟ — قال : شقشقة(1) ولا يقوم عليه بُرهان ، علمٌ مكفوف وبضاعةٌ مضعوف .

١) كذا ولعله قد سقطت عدة كلمات .

١) خط : النى .
٢) خط : تلخيص .
٣) سقط من الاصل بعد هذه الكلمة : في كذا .

مدح
أوَد اللفظ عن زراية[1] النقص وهجنة العجز.

٧ ـ فالخطّ ؟ ـ قال : لسان اليد ولهجةُ الضمير ولفظ الهمّم ونعمَ الأداةُ ، والناطق عن الخواطر وسفير العقل ووحي الفكر وسلاحُ المعرفة ومحادثة الأخلّاء على التنائي وأنسُ الإخوان عند الفُرقة ومجاورتُهم على اختلاف الدار وبُعد الشُقّة ، ومستودع الأسرار ومستنبط الأخبار وحافظ الآثار ورابط الدواوين وحاذ أمور الدنيا والدين .

فالخطّ ؟ ـ قال : قليل الردّ يسير الرِّفد ، صناعةٌ محرّر[1] وأداةٌ مزوّق .

٨ ـ فالحساب ؟ ـ قال : علم طَبْعيّ لا اختلافَ فيه واضطراريٌّ لا تأويلَ له ، قائم بنفسه ثابتُ الدلائل مكتفٍ بذاته واضحُ البراهين محصَّنٌ من خلاف المُعارض وردّ المُناقض[2] ، لا يحتمل بمعناه الوجوه المشتركة ولا ينازع لفظَه الحدودُ المتشابهة ، ولا تتعاوره التأويلات المختلفة ولا تتقسّمه المذاهبُ المتباينة ولا تتوزّعه[3] الأقاويل المتضادّة ، ولا يتبدّل بالتشاجر والمِراء ولا باختلاف الآن وتنازع الاهواء ، حاكم يقضي بقطع التجاذب[4] والخلاف وقاضٍ يقضي

فالحساب ؟ ـ قال : مستعجِم عسِر[2] الإدراك مُنعقِد شديد الاشتباك ، يُتعب التفكير ويستكدّ العقولَ بدوام التنكير .

١) خط : رواية .
٢) خط : المناقص .
٣) خط : نتورعه .
٤) خط : التجارب .

١) كذا في الاصل ولا يقوم السجع على قدم . ولعل الصواب : «مخرق» .
٢) خط : عسر .

ذم	مدح
	بالعدل والإنصاف وقيمٌ يحفظ[1] الكريم . ويستدرّ إمساكَ اللئيم .
. . فالاخبار والنوادر ؟ — قال : كذبٌ مؤلَّف وكلامٌ مُزَخرف ، يُستَغَزُّ به الغِرّ ويُقتنَص به الغمر ، مصائدُ المساكين والخدّاعين .	٩ — فالاخبار والنُتَف ؟ — قال : هي ثِقاف العقل وَجَمام[2] النفس ومُستراح القلب وزائد الفهم وقائد المروؤة[3] ودليلٌ على الجرأة ، وإليها تصغي الأسماع عند المحادثة وبها تجلب القلوب عند المجالسة ويكون الإمتاعُ والمحادثة ، وهي حدائق الأوداء عند المذاكرة ورياض الأخلاء عند المجاورة وتزيد في الأنس والسرور وتدلّ على محاسن الأمور ، وتُدنيك من مجالس العظماء وتُدخلك في صحابة الرؤساء .
فالشعر ؟ — قال : سلاح بذيٍّ وآلة دنيٍّ ، فضول الأعاريب مبنيٌّ على زُخرف الأكاذيب .	
فالعروض ؟ — قال : علمٌ مولَّد وأدب مستبرَد ، ومذهب مرفوض وكلامٌ مجهول .	١٠ — فالعروض ؟ — قال : أداةُ الشعر وعيارُه ، به يُعرف الصحيح من السقيم والمعتلّ من السليم ، وعليه مَدارُ القريض والشعر وبه يسلم من الأوَد والكسر .
فالطب ؟ — قال : رأيٌ مستعمَل وقياس منتحَل ، موضوعٌ على التخمين والحدس وتعليل	١١ — فالطبُّ ؟ — قال : سائس الأبدان والقيّم على الإنسان ، وبه يكون حفظُ الصحّة وتدبير الأمراض ومعرفة

١) خط : يحفظ .
٢) خط : وحمام .
٣) خط : المروة .

ذم

النفس، لا يوصَل منه الى الحقيقة ولا يُعمل فيه بالوثيقة .

مدح

الفصول والأزمان وتغيُر الأهوية واختلاف البلدان، وبه يقام الجسمُ على الاعتدال والقصد، وبه تكون الدلالة على المنافع والمضارّ، علمٌ يتَّفق[١] فيه أصحاب النِحل ويجتمع عليه أهل المِلَل[٢]، ويعمل به الخاصُّ والعامّ ويفتقر إليه الصغير والكبير .

ذم

فالنجوم ؟ — قال : حَدْس وترجيم صوابُه عسير وغلطه كثير، حرفةٌ محدودٍ وصناعةُ محروم .

مدح

١٢ — فالنجوم ؟ — قال : حَدْس يُعلم بها عددُ السنين وحساب الشهور ومواقيتُ الأزمنة والفصول ومساقط الأنواء ومطالع النجوم ومعرفة الأهلّة ومقاديرُ الأظِلّة وسُموت البلدان واقدام الزوال . . .

[١٣ — فالكلام ؟] ؟ — . . . . . .[٣]

وإدراك الدقيق والجليل[٤] وآلةٌ لإدراك[٥] الغامض والمشتبه وأداةٌ لما بين الشبهة والحُجّة والجماعة والفرقة والحظر والإباحة والردّ والمعارضة والإجماع والمناقضة[٦]، وحاجزٌ بين الحسنة والسيّئة، كلُّ

---

١) خط : يفتق .

٢) خط : المُلك .

٣) يبدو انه قد سقط من هنا عدة اسطر اذ ان علم النجوم ليس آلة لادراك الغامض الخ فلعل العلم المذكور في هذه السطور هو الكلام أو المنطق .

٤) خط : الحليل .

٥) خط : الادراك .

٦) خط : والمناقصة .

مدح	ذم
عليه عيالٌ وهو له آلةٌ ومثال، وبه يُعرف الشكل والضدّ ويستبان به العدل والفضل ويُتغلغل إلى الامور الخفيّة ويُتوصّل إلى المعاني اللطيفة ويُتوغّل إلى معاني الأسماء وحقائق الأشياء، وبه يُحترس من شُبُهات المقالات وفساد التأويلات، وبه يُدفع تحريف أهل الأديان ويُتنزّه عن حيرة التقليد.	
١٤ ـ فالفلسفة ؟ ـ قال : أداةُ الضمير وآلة الخاطر وسوانح الفكر ونتائج العقل وأدلّة المعرفة للأجناس والعناصر، وعلمُ الأعراض والجواهر وعِلَل الأشخاص والصُّور واختلاف الأخلاق والطبائع وافتراق السجايا والغرائز، ومعرفةُ الأشكال والأضداد وأسباب الكون والفساد، وبه تُعرف حركات الاشخاص العُلويّة وطبائع الجواهر الأرضيّة، علم يشحذ الفكر ويلقّح الضمير ويُروّح ما في الصدور، وتُعبّر به الألسُنُ عن العقول، وهو لمن مضى آثار ولمن بقي استبصار.	فالفلسفة ؟ — قال : كلام مترجَم بعيدٌ مداه قليلٌ جدواه، مخوفٌ على صاحبه من سطوة الملوك وعداوة العوامّ.
١٥ ـ فالكيمياء ؟ ـ قال : لطائفُ الفِطَن ودقائق الفكر وغوامضُ الهِمَم وتغلغُلٌ إلى حقائق الجواهر وخصائص العناصر وطبائع الأشياء، وما يُنتِج لها الجمعُ والتركيبُ ويُحدِث لها النظمُ والتأليف، وبه يُوصَل إلى حقيقات الإكسير وقلب	فالكيمياء ؟ — قال : تُهَمٌ حاضرة وأغراض متراخية شَرَكُ الغرور وحبائل الطَّمع وناموس الخُدَع، همّةُ مغرور وصناعةُ مخذول.

فالنسب ؟ - قال : علمٌ تعلُه عليك ونفعُه لغيرك ، قليلُ الفوائد نفعُه للأباعد ، عليك كلُّه ولغيرك فضلُه .

فالتعبير وعلم الرويا ؟ - قال : ظنونٌ وحُسبان لا يَثْبُت له دليلٌ [. . . . .][4] الغنى والثروة وحاجزة دون العز والرِفعة

فالشجاعة والإقدام ؟ —قال : قائدُ الموت ورائد الحِمام ، يُعجل المهج قبل آجالها ويختطف النفوس دون ميقاتها .

فالصنائع ؟ — قال : قائمةٌ بالقوت والبُلغة مانعةٌ من أعرابيّ ، وهَذَرٌ بدويّ وصناعةٌ متقعِّر ومذهب متشدِّق .

فالتجارة ؟ — قال : في الحَضَر مُجاملة وفي الغُربة مُخاطرة ، للنفس مَتعبة وللقلب مَشغلة ، أمانيها طويلة ومحصولاتها قليلة .

مدح

العيان وإبدال الحِرِّ والكيان ، وهو ثمرةُ نهاية المعرفة وفائدةُ أقصى الحكمة .

١٦ - فالنسب ؟ - قال : فيه معرفةُ الأصل والسَّلَف وحفظُ المفاخر والشرف وعلمُ الأعقاب والخَلَف وتحصينُ[1] المواليد والنسب من دعوة المدَّعين ومشاركة المسلمين.

١٧ - فالتفسير والتعبير ؟ _ قال : علمٌ نبويّ وسفيرٌ إلاهيّ وروحٌ خفيّ يُجيل[2] الأرواحَ في أرجاء الغيوب ويُؤدِّي الأشياء إلى ضمائر القلوب ويُسيِّر الأنفس في البراري والبحار ويناجيها بخفيّ الأسرار ويشاهد ما غاب عن الأبصار ، ويُريه الحيَّ والمقبور ويكشف عن عجائب الدهور ، وفيه من الله بُشرى وتحذير وتخويف[3] ، يُخبِر عن الأشياء الغائبة والحاضرة ويُبيّن عن أمور الدنيا والآخرة .

١٨ - فالشجاعة والفُروسية ؟ _ قال : زينةٌ في الرخاء وعُدَّة في الشدَّة وأُهبةٌ في النَّجاة وزيادةٌ في القوَّة ، وخصلةٌ حسنة وذكرٌ نبيه .

١٩ - فالصنائع والمتاجر ؟ _ قال : بها قِوام المعيشة ودفعُ الخصاصة ، وهي أمانٌ من الخَلَّة وحرزٌ من الحاجة .

---

١) خط : وتحصير .
٢) مشوش في الاصل .
٣) خط : وتحونف .
٤) يظهر ان كلمة معناها « لا يدرك به » قد سقطت .

رواية مارينوس راهب دير قنّوبين

بقلم الاب مبارك ثابت اللبناني
رئيس دير المخلص في البرامية

مارينا الاهدنيَّة فتاةٌ في السنّ الخامسة عشرة. مليحة الصورة رشيقة القدّ ذات وجهٍ ابيض مستدير كالبدر عند اكتماله، بعينين واسعتين كلوزتين لامعتين كسراجين سرقتا من البحر زرقته ومن الفضة بياضها يحرسها حاجبان كسيفين في جبين ناصع عريض كشف عنه شعر رأس بلون الذهب مرسل على الكتفين والظهر كوشاحٍ نسجه من خيوط الحرير والنضار ينتهي عند اسفل الظهر وفي اطرافه جعودة كجواهر مدلّاة بمجال شمسية صفًّا منظّمًا من الجنب الى الجنب.

جلست على مقعدٍ من مخمل فستقيّ اللون امام احدى نوافذ قاعتها فتجلّت لها مشاهد تسرق النظر بجمالها وتخلب اللبّ بروائها. فانطلق فكرها في جوٍ فسيح من التأمل الواقع بين البسطة والانقباض والمسرَّة والاغتمام: هذا الربيعُ قد خلع من ملابسه على الدَّوح كلّ حلةٍ قشيبة خضراء. ومدَّ على الحقول بساط نبته الواسع مطرَّزًا بنقوش الازهار المتنوعة الالوان. تبلّج جبينُ الفجر وافترَّ ثغرُ الصباح واوشكت الغزالة ان تسفر عن محيّاها المشرق البهيّ. وتنقّبت وجوه النجوم وغسلت السماء وجهها بماء الصبح فانعقد الندى لؤلؤًا على العشب والزهر والورق. وهبَّ النسيمُ من رقادهِ كاشفًا عن جسمه الناعم لحافَ الظلام. وجال في الفضا. جولته المنعشة فايقظ الطبيعة من سبات سكونها الليلي. ولاثمَ الارز المظيم فترنّحت معاطف اغصانه، فهوذا صدى حفيف اوراقها في الوادي المقدس يطرب كل شي. حتى الصخور. تأملت مارينا في ما ترى وتسمع ويقع في حسّها من هذه البدائع، فارتفعت بعقلها وقلبها الى ما فوق وقالت: سبحانك اللهمّ يا مبدع هذا الكون الجميل، تباركتَ من جميع مصنوعات يديك. ان كان لمصنوعاتك مثل هذا الجمال فكيف بجمال جلالك يا عين الجمال ايها الجالس على عرش الازل. ثمّ انطوت على نفسها وقالت: كل ما اراهُ جميل،

كل ما اسمعهُ لذيذ كل ما اتنشقهُ من نسيم هذا البلد طيّبٌ منعشٌ مسكيّ . فما لقلبي لا يبرحه الغمّ . لقد أوتيتُ من المال ما لا ينفد على الانفاق ومن الصحة ما لا اطلب مزيدًا عليه . والعزُّ والكرامة يحفّان بي في هذه الدار ، ولي الحظُّ الاوفر من اكرام اقاربي ومواطنيَّ . فماذا يعوزني ؟ اوّاه ! مـاذا تنفعني كلّ هذه النعمة وانا بلا أمّ ! الأمّ اثمن من كلّ ما تحت السما . حقًّا ان الدنيا أمٌّ . وانا اين أمي ؟ اختطفها الموت اذ صار قلبي يعرف ان يحبّها وعقلي ان يقدّر محبتها وفائدة وجودها . يا ليتَ هذا كلّ البلاء . فـاني من قبل ان تخمد جذوة حزني عليها ، مُنيت بفقد والدي المحبوب ، ذلك الوالـد الحنون الذي ورث محبة والدتي لي فصارت محبته محبّتين وتحوّلت محبتي اياهـا اليه فصرت احبُّهُ باعتبارين ، وكان لي به بعض التعزية في حزني المديد . ولو انّ الله نقلهُ اليه لكان يكون لي في اليأس شكل راحة . لكنّه توارى منذ عامين فلا ادري اين يكون ولا ما صار اليه . ولو ان هذا كلّ عذابي لمدّلتهُ بالصبر والتسليم ، لكنّ خاطرًا يدور في خلدي ، يسلبُ راحتي ولا طاقـة لي بصدّه ولا بقبوله بالوجه القطعي . ما آلمَ ما انا فيه من تردّدٍ وارتياب !

وفيما هي على هذا الحال من التأمل الموجع والذكريات المحزنـة ، اذا خادمتها رفقة تدخل اليها بطبق من فضّة عليه طعام الصباح القته على اسكملةٍ من خشب الارز مرصّع بالفسيفسا. ذات الالوان . ووقفت لديهـا وقالت : اسعد الله صباح سيدتي العزيزة ، يا حياتي أما تفطرين ؟ ما لكِ واجمة يا روح رفقة . أغمًّا تشكين ام ألمًا ؟ — قالت : لا غمًّا ولا ألمًا . في الرأس افكارٌ من جهة المستقبل . افكارٌ متناقضة . وانا اميلُ الى فئـةٍ واخشى الخطأ في الترجيح . ولأن اخشى البتَّ أولى . وليس من يعينني على الخروج من تردّدي في الاختيار . قالت الخادمة : هل ترى سيدتي ان تفتح قلبها لهذه الخادمـة الامينة التي استقام ولاؤها لهذا البيت مدى ثلاثين عامًا . قالت: لستِ يا رفقة خادمة في هذا البيت انما انت فيه ربّة . انتِ مربيتي بمثابـة امي فلا يحسن ان اكتم عنكِ ما بخاطري من شؤون . امّا ولستِ تستطيعين شيئًا في امري فلا ارى فائدةً بإيقافكِ عليه قبل الاوان. ارفعي هذا الطعام فقد اخذتُ النفس بان اصوم ثلاثة ايام ِ التماس مشورة الرب بالصوم والصلاة.. امضي لعملك وصلي

لاجلي ولا تأذني لاحدٍ بالدخول اليَّ . فاستولت الدهشة على رفقة وقالت : تصومين ثلاثة ايام ! او لا تعلمين ان هذا الصوم الطويل يهزل بدنكِ الناعم ويذهب بنضارة وجهكِ المشرق ويبدل بالصفرة حمرة وجنتيكِ . بعيشكِ يا جنَّة هذا البيت لا اذبلتِ غصن صبائكِ الرطيب . قالت : لا تشفقي عليَّ من الصوم فانَّ معهُ زيادةً في صحة البدن ونضارته . قد عقدتُ القلبَ عليه فهيات ان أحلَّ ما عقدت . اذن صلّي ليتقبل الله صومي ودعائي ويُلهمني ما يريد . قالت : خيرًا أُلهمت وملتمسكِ نلتِ وانصرفت عنها وهي تقول في نفسها . ما هذا الذي تلتمسهُ من الله ، ما هذا المستقبل الذي تطلبه وهو معلوم وفي حكم الحاصل . ألعلّها على ريبٍ من محبة فريدٍ ابن عمها ؟

اطرقت ماريا هنيهةً ثمَّ رفعت عينيها جهة السماء وقالت : اللهمَّ انت ابي وامي واخي واختي شئتَ فاخذتَ مني والدتي وانا حديثة السن فسلّمتُ اموري اليك . ثمَّ شئتَ ان يخليني والدي فتوارى وانا في اشدّ الحاجة اليه ، سألتُك ان تردّهُ عليَّ او تهديني اليه فابت حكمتك الّا ان اكون وحيدةً فريدةً سجينةً لا تعزية لي في هذا الصرح الّا في التوكل عليك يا كثير المراحم والتعزيات . والآن انت ترى مرارة نفسي ، وحيرتي بادية لعينيك ، فامدد يدك وانشلني من لجة هذا الشقاء ، واعلمني ما مشيئتك القدوسة لاعمل بحسبها ، انا عمياء . لا ابصر الطريق الذي يوصلني اليك يا غايتي القصوى . من يرشدني اليه سواك . ان اخدمك في صف العذارى ، فخذ بيدي الى حيث تشاء . او في صف ربات البيوت المتقيات . فما هذا الشعور بنفسي المخالف لشعور امثالي من الفتيات .

وبينا هي في هذا الشأن من التأمل والصلاة والتردد في الاختيار فتح الباب بغتةً واذا ابو يوسف جدّها لابيها يخطو نحوها وفي ثغره ابتسامة الحب الوالدي فوقفت اكرامًا له وبعد ان تبادلا التحية قال : ما هذا الابطاء علينا يا ولدي ، غمّني وجدّتك ان لم تجيئي فنراكِ ونفرح على ما عوّدتنا كل صباح .

— عذرًا يا سيدي الجدّ المحبوب . وطبعت لثمةً حارّةً على يده وقالت : على غير قصد كان ابطائي عليكما اليوم فاصفحا .

— انتِ يا ولدي نور اعيننا ولذة عيشنا وكاشفة غمنا فلا طاقة لنا بتحجبك . وايّ يوم يطلع علينا صبحهُ دون مطلع وجهك المضي . فليس من ايامنا ذلك

اليوم ، ها جدّتكِ المقعدة تطلب ان يحملها الخدمُ اليك لانها لا تصبر على غيابك فهل تمضينَ اليها أم تجيء هي لتراكِ ؟

ــ يا لرقة حنانها ، بل انا اجيء اليها على الرأس والعين . انهـا تباركني فلا أضل سواء السبيل .

ــ ما شغلكِ عنا يا ولدي اتشكينَ من ألمٍ ؟ لا والحمد لله . لكني اغرقتُ في الصلاة فلم انتبه حتى دخلتَ اليَّ .

ــ الاغراق في الصلاة سبيلكِ منذ طفولتكِ، امّا سهوكِ عن جدّيكِ فجديد.

ــ افكارٌ متنافرة تراكمت عليَّ فصرتُ الى الحيرة فاخذتُ التمس الهداية من الله .

ــ احسنتِ يا بنيَّة . وان شئتِ الافادة من حنكة جدكِ فمشورتي حاضرة ولعلّها تخرجكِ من حيرتك .

ــ لا اشكُّ في أصالة رأيكَ وحكمة مشورتكَ ، غير انَّ من الاحوال النفسية ما لا يُحسن البتَّ فيها غير الله .

ــ لا يفوت علمكِ ان الله يشاء ان يكلم النـاس بالناس فقد اكون انا اداة مشيئته لديكِ .

ــ لا نكير ، سوف التمس مشورتك بعد استشارة الله بالصلاة .

ــ انتِ يا ولدي ذات فطنةٍ وفهم ، فما تسألين الّا الخير ، فليعطكِ الرب ما تسألين ، هل رأيتِ فريدًا ابن عمك هذا الصباح ؟

ــ لا . فقد قلت لرفقة ان لا تأذن لاحدٍ بالدخول اليَّ اليوم .

ــ اذن . لهذا صرفتهُ فاتانا شاكيًا قلقهُ اذ لم يتمكن من زيارتكِ على عادته .

ــ ما كنتُ لارضى له هذا الاضطراب . ألم يزل في دار جدّي حتى الساعة؟

ــ لن يبرحها حتى اعود باخبارك اليه . انَّ قلقـهُ لبادٍ في وجهه المتجهم ونظرته التائهة واستيلاء الجمود على شفتيه .

ــ لتطب نفسهُ، اني بخير ، لا يأخذني ألمٌ ولا غمٌّ ، لكني بحاجة للخلوة الى نفسي فلا احبُّ ان احدث اليوم انسانًا كائنًا من كان

ــ انّى له الصبرُ على احتجابك طيلة هذا النهار .

ــ اذن ، ما يصنع لو حيل بيني وبينهُ مدى العمر ؟

ــ ألعلكِ تصرفين قلبكِ الى سواه ·

ــ لا إلى سواه من الرجال ، بل احبُّ ان انظر في دعوتي تجنُّب الضلال.

ــ ذلك اليكِ . غير ان علامات الدعوة لا تُحصرُ عادةً في تروع النفس الى حالة دون حالة اخرى وربّما كان لهذه فضلٌ على تلـك من وجوهٍ لا تظهر لعين الناظر في بادئ الرأي اذ يقع ان يكون ذلـك التروع وقتيًا ولا صلة له بمشيئة السماء ، فمن علامات الدعوة ايضًا رغبة الوالدين وانتِ لا تجهلين ما رغبة ابيكِ وجدّيكِ .

ــ ان كان الولد نفسهُ لا يسلم من الغرور في امر دعوته فكيف بوالديه واقاربه في شأنٍ مرجعه الاول اليه .

ــ الفطنة وتقوى الله تعصمانكِ من خطأ الاختيـار . امّا انا العجوز فأيّة تعزية تبقى لنفسي ان اخترتِ العُزلة في ديرٍ. انكِ ان فعلتِ فلتنزلنَّ شيخوختي الى الحفرة مكفّنة بالحزن واليأس .

ــ لا تجزع يا سيدي الجدّ العزيز فانَّ من غيَّب ابي واسلاك عنهُ لي يعرف كيف يعزّيك اذا قضت علينا حكمتهُ بالفراق . فتصعّدت من صدر جدّهـا أنةٌ حامية وتدحرجت من عينيهِ نقاط الدموع وقـال بصوت مترجرج، هيهاتِ يا ولدي هيهات ! لئن بنتِ ليكوننَّ العزاء من نفسي على بُعد السماء من الارض. فبتربة ابيكِ المحبوب لاقصمتِ ظهر هذا الشيخ الذي اثقلتهُ السنون . قال هذا وهمَّ بالخروج فاخذت ماريًا بذراعهِ الى البـاب ولثمت يدهُ وقالت : طارد اليأسَ بالرجاء يا جدّي العزيز ، فانا عكاز شيخوختك ما دمنا في قيد الحياة .

قامت رفقة امام سيدتها وقالت : سيدتي . خالكِ جبُور في الباب فهـل تأذنين ؟ ــ خالي : عهدي به في طرابلس ! قالت رفقة : فما قدومهُ فمـا تستغربين ؟ ان يجيء يومَ عرس ابنته . ــ أرجئ العرس الى غـدٍ . اتعرفين ما سبب قدومه ؟ ــ اوقف جدّيكِ على السبب واحبَّ ان يحدّثكِ . ــ ادخليه انهُ شقيق والدتي المرحومة ، يلذّني ان ارى في وجههِ ملامح محيّاها اللطيف .

دخل جبُور وحيّا ابنة اختهِ وقال : كيف انتِ يا عزيزتي ، يا ملحة الجمال والادب ؟ قالت : بخيرٍ يا سيدي الخال ولي برآك فرحٌ عظيم . نبأ

سارٌ على لسانك ان شاء الله . قال : ما احملُ اليكِ الّا ما يَسرُّ . تعلمين ان ابنة خالك يُباركُ اكليل عرسها في هذا النهار — نعم . فباليُمن والاقبال والرفاء . — لكننا اضطررنا لارجاء العرس الى اجل قريب — جنيتم من ثغر ذلك الاجل ابتسامة سعدٍ وهناء . — ما صار الارجاء الّا لعرض امر عليك . ها انا لديك . قال : أُحبُّ ان لا يغيب من سمائي قمرٌ حتى يطلع فيها قمر . قالت : لا خلتْ سماؤك من اقمارٍ تشعُّ انوارها بليل نهار . قال : اريدكِ زوجةً للطيف ابن خالك وقد حدَّثتُ جديكِ فما كذَّبا رجائي . لكنهما ارسلاني اليكِ . — قالت : الزواجُ سنَّةُ الخالق ، لكنهُ قيدٌ لا يحلُّ منه غير الموت . فاتيانهُ على غير التروّي مجلبة للندم . — قال : ليس لطيف بالغريب عنكِ واخلاقهُ كاسمهِ لا أرقَّ منها ولا أسمى . ومحبّتهُ لكِ اغنى عن كلّ بيانٍ . وثروتكما لا تُضبط بحساب. وموعد الاقتران غداً ، فاذا تمَّ لي ان افرح بزواج ابني وبنتي معاً فيا لسعادتي ويا لهُ من يومٍ سعيد . قالت : لا انكر لطيفاً لسو. فهو ولا ريب خير نصيب . امّا ان تأخذ مني رضاً او رفضاً في هذا الوقت القصير فذلك وراء المستطاع . دعني اولًا اتأكد من دعوتي . — قال : ماريّا ابنتي ! ما كنت لاتوقع منكِ مثلَ هذا الجواب . ان كنتِ تكرهين الاقامة في بيت خالكِ فلطيف يقيم معكِ في بيت ابيكِ . قالت : البيتان واحدٌ في نظري ، غير ان عملَ العمر لا يُبتُّ فيه بساعة . — قال : آفةُ الاعمال تسويفها . قالت : في العجلة الندامة — وقالت رفقة : ليس بعاقلٍ من يجازف في امرٍ خطير . فقال جبُور : أأنتِ علينا يا رفقة ؟ — كلّا يا سيدي . بل رأي سيدتي استصوبتُ . قال : لان تسمع مني وانا خالها أولى. فقالت ماريّا : مشورة القلب قبل كلّ مشورة . قال : الا تحبين لطيفاً ؟ — ألا أحبُّ اخي ؟ قال : او لا ترضينهُ شريكاً في الحياة ؟ قالت : ليس الجواب بحاضر ، دعني اتبصر شهرًا . قال : شهرًا ! وبعد شهر ايكون الجواب نعم ؟ — لا أدري . — اذن . اترفضين ؟ — استمهل .

— الرفض والاستمهال اخوان .

— كلاهما خيرٌ من الإخلاف بالوعد .

جبُور : اتردّيني اتعثّر باذيال الخيبة .

ماريا : ما بجوابي ما يبعث على خيبةٍ او يأس .

جبور : الا كرامة لخالك ؟ ماريا : كلّ كرامة واعظام .

جبور : الجواب النهائي ؟ ماريا : في نهاية شهر .

جبور : لا تضربنّ على حديدٍ باردٍ . وهمَّ بالذهاب .

ماريا : بيتك يا خالُ بعيد . أفلا تبيت عندنا فتستريح من تعب الطريق .

جبور : الناس في انتظاري . الى اللقاء !

ماريا : رافقتك السلامة .

مضى جبور وهو يتمتم ويدمدم متجهم الوجه يابس الشفتين . وتكلّمت ماريا على مسمع من رفقة قالت : مضى خالي تتأجج بين ضلوعه نار الاكتئاب. ما اخشنتُ لهُ الحديث فانحو على نفسي بالملام . لو سألني غير الاقتران بابنه لما قلت الّا لبيك . امّا الزواج فلا أرى من نفسي نزوعاً اليه . رفقة : بحكمة تصرفت . لانهُ ان كان الزواج دعوتك فلأن تصيري الى فريد ابن عمك أولى . سكتت ماريا هنيهةً . ثمّ قالت لرفقة : دعيني الساعة وحدي لاستشير الله في دعوتي . وفيما هما في هذا الشأن قُرع الباب . فقالت : انظري يا رفقة من القارع . فنظرت وقالت : فريد — قالت : اصرفيه الى غدٍ ، وكانت من فريد قفزةٌ فاذا هو تجاه ماريا حيّاها وقال : الى غدٍ يا جنّتي ولي يومان لا اراكِ. ودنا منها فتصافحا وقال : ما هذا التغيّر في وجهك هل بجسمك ما يؤلمك ؟

— كلّا يا أخيّ بل ارقتُ الليلة فبدا عليّ ما تراه . ما أرقك يا حبيبةُ فاصارك الى هذا الوجوم ؟

— لا اخالني واجمة .

— بمَ تفكرين ؟

— ما كل خاطر يحسن ان يُماط نقابهُ .

— اتطوين عني دفينة صدركِ وانا اخوكِ ؟

— لوكان في خاطري ما ينفعك كشفهُ او يضرّك كتمهُ لأفضيتُ به اليك .

— الاستغناء برأي نفسك غلط .

— واستشارة المخلوق في مواضع استشارة الخالق غباوة وجسارة .

— لا تطلبي مشورتي بل اطلعيني على ما فيه تستشيرين .

ـ ستعلمهُ .

ـ خير البرّ عاجله .

ـ ما لكَ والالحاف في امرٍ لا يلامسُكَ ؟

ـ اجهلتِ اني احبُّكِ وكل محبٍّ مشفق ؟

ـ ان كنتَ تحبني فلا تضغط عليَّ .

ـ انا متوسلٌ لا ضاغط .

ـ توسلك يؤلمني .

ـ وكتمك يُقلقني .

ـ اتراكَ مستوحشاً من ناحيتي ؟

ـ معاذ الله ان يداخلني ريب منكِ .

ـ اذن . فما يعكّر صافيك ؟

ـ قدومُ خالكِ في هذا الوقت .

ـ حديث خالي الى اذنٍ صمّاء .

ـ إذن أأفرغ من خوف المستقبل قلبي ؟

ـ المستقبل ليس لاحد . انما المستقبل لله .

ـ هل ترضينَ لي عذاباً ؟

ـ انتَ احبُّ اليَّ من نفسي .

ـ لا أجهلُ محبتكِ كأختٍ ، فنحن متحابّان على هذا الوجه منذ الفطام . لكنَّ قلبي اليوم يطلب غير محبتنا في الامس .

ـ ما بغيتُكَ ؟

ـ محبة نبني عليها مستقبلاً سعيدًا وتقرن قلبينا معاً بوحدة الحياة .

ـ هذا لا اعدُ به ما لم اعلم مشيئة السماء .

ـ لو لم تشأ السماء ان تكوني سعادتي على الارض لما وُلدنا في بيتٍ واحد وساعة واحدة . أمن سبيل الصدفة وقع لنا هذا فاشتركنا في الرضاع ولبسنا معاً حلّة العماد من يد اسقفٍ بعينه . ونشأنا في سريرين متحاذيين وكنا ندبُّ على الطنافس في قاعة واحدة ونبكي ونضحك ونقفز ونلعب ولا صبرَ لاحدنا على فُرقة صاحبه ولو ساعة من النهار .

فقاطعتهُ ماريا وقالت : رويدكَ فريد . كلُّ ما تحبُّ ان تمرَّهُ على ذهني فهو ثابت فيه كالنقش في الحجر . وفي نفسي من تأثيرهِ مثلُ ما بنفسكَ وزيادة، فأنا إمَّا لكَ وإمَّا ليسوع المسيح . قال : كم في كلامكِ من غموض .

ــ تعلم يا أخيَّ ان كثيرين من أولي الثروة والجاه قد طلبوا ما انتَ طالبهُ فردّوا بلا رجاء. اما انتَ فأعطيتَ تأميلًا لانك الحظ الذي اختاره ان اذن الله .

ــ شكرًا لكِ يا حبيبة . انَّ في كلامك لتعليلًا وعزاء . لكنه لا يبرّد غلّةً ما دام مقرونًا بشرطٍ . لماذا لا تبتّين لي عهدًا فيسكن تأثري وأفلت من ربقة الارتياب ؟

ــ لاني على ريبٍ من دعوتي فاكرهُ ان اقطع عهدًا ثمَّ اخون .

قال فريد : انكِ تمزقين فؤادي ولا تدرين .

ــ بل انتَ تمزّق قلبي بانكسار نفسك ولا تدري اني مسيَّرةٌ لا مخيَّرة .

ــ لولا ايقاني بنقاوة دخلتك لتجاذبتني فيكِ الظنون، ماذا اقول يا زنبقتي البهيَّة وقد اجتمعت بكِ أجمل خلال الخير واكمل خصال الظرف . لعلَّ فيَّ ما لا يحسن في عينيكِ بعمركِ يا حبيبة هل تنكريني لسوء ؟

ــ مِمَّ انكرك يا أخيَّ ، اما انك جوهر الظرف ومعدن الادب، هل في الشبّان اقصر منك يدًا عن المساءات واسرع منك قدمًا الى المكرمات.

ــ ان كنتُ ذلك في نظركِ فلماذا ضنَّتْ عليَّ بصفقةِ يدكِ ؟

ــ لاني اكرهُ التسرُّع .

ــ ان بين التسرُّع والاسراع لبونًا .

ــ أبلعني ريقي .

ــ نفّسي من كربي .

ــ دعني اتحدث الى جدّتي ساعةً ثمَّ اعود اليك .

ــ ذلك اليكِ .

ذهبت ماريّا لتحدّث جدّتها وجاء جبُّور في فمهِ كلام يقولهُ لها فلم يجد غير فريد، فسألهُ اين العزيزة ماريا – قال : مضت الى جدّتي منذ بضع دقائق – قال : ما هذا الذي اراهُ في وجهك من كسوف ؟ قال: تساقطت نفسي غمًّا والتياعاً – قال جبُّور : سلمتَ . فما دهاك ؟ قال : خوفي على ماريّا ، فقد كثر طلّابها

حتى خيّل اليَّ ان النسيم يخطفها من بين يديَّ ــ قال : سرِّ عن نفسك الهمَّ فانها لن تصير لغيرك . قال فريد : اعن يقين تقول هذا ام لتُذهبَ بُرحاء صدري ؟ ــ كلَّ اليقين ــ هل تحدثتَ اليها اليوم ؟ قال نعم . قال : وما قالت ؟ قال : انك حظُّها ان كان الزواجُ دعوتها .

فريد : آهِ . من هذا الشرط كم جعلني اقلّب من الهمّ كفّي !

جُبور : ابنة عمك فتاة صحيحة الدخلة صادقة اللهجة قلبها على لسانها ، وهي تعلم موقعها من قلبك وقد صرّحت امامنا برضاها فلن ترجع به ، انها ربّة وفاء . فكن ناعم البال قويَّ الامل ، فسوف تجدها عندما تحبُّ . غير انه اذ كان الزواج رباط العمر وسرًّا عظيماً وجب ان لا يُقدم عليه الا مسبوقاً بتأهب وتبصّر كافيين .

فريد : ان كان اقتراننا على مرامها وكان كلنا راضياً به ومحبّذه ، فماذا يسوُءها ان تسقط قطرةٌ من ندى وعدها على قلبٍ يخنقهُ الجفاف .

جُبور : صبرًا يا بنيَّ اني منطلق لاحدثها وراجٍ انها ستنيلك المُنى فتطيب نفسُك ويستقرُّ الفرح في قلبك .

فقال فريد : شكرًا لك يا سيدي ، اني امكث هنا ريثما تعود بالبشرى السعيدة او ترسل في طلبي اليك .

قال جُبور : امكث مطمئنَّ البال . وما كاد يتوارى عن نظر فريد حتى اقبل سليم ابن خالة فريد فسلّم عليه وقال : أي ابن الخالة كيف انت ؟

فريد : على ما ترى .

سليم : اراك مشترك الخواطر ــ قال فريد : بين الضلوع نارٌ تلتظي ــ قال سليم : انفدتَ جعبتك ولمّا تُصب مرماك ؟

فريد : اسدّدُ السهمَ فيطيش .

سليم : اذن . أمِن اليأس انتَ مكروب النفس ؟

فريد : حبذا اليأسُ انهُ اهون من التقلّب بين الامل والفشل

سليم : اما تأخذ مني هذه النصيحة ؟

فريد : بلى . ان استطعتُ ، فما نصيحتك ؟

سليم : اذا لم تستطع امرًا فدعهُ وجاوزهُ الى ما تستطيع

فريد : ليس الامرُ في يدي .

سليم : رجلٌ لا يملك امره ليس بالرجل .

فريد : ما اصنعُ بقلبي ــ اصرفهُ الى قلبٍ يمائلـهُ . أمِن قلّةِ الطالبات رضاكِ تطلب من تترفع عليك . قال : لو كنت تعلم ما الهوى لعذرتني ــ قال سليم : لا عذرَ لمن يُسلط هواهُ على عقلهِ وارادتهِ . ألا تعلم انهُ لا شيء اكثر تقلباً من قلب الانسان ، حوّل فؤادك عن هذا المتجه الوعر ، وانا مريـك درّةً غالية لا تعدلها الشمس اشراقاً ولا الزنبقة بهاء ، وضامنٌ لك كونها رهينة كلمتك وقيد رضاك . ــ قال فريد : انَّ مـاريَّا اقرب اليَّ من نفسي وكأنَّها هي في قبضتي ، وتمام بغيتي مترتب على كلمة ، لكنَّ هذه الكلمة من يستخرجها من شفتي تلك التي هي سعادتي على الارض . أسليمُ . مثلي لا يحيـد عن الوفا . لئن تحول عنها قلبي لدعوت عليه بالحطم والسحق والالتهاب ، أليس عاراً على ان يعطي قلباً بقلب ثمَّ يردُّ ويستردَ . هب انني رضيتُ لنفسي هذا العارَ أفأرضى العذاب لمن احبها على نفسي . لا عشتُ يا ماريا ، يا عطية الله لي ، لا عشتُ ان فعلتُ . قال سليم : ان هذا لمنتهى كمال المحبة . لكنها خطة وعرة قـلَّ ان يخطأها لنفسهِ محبّ . اذن وطِّن النفس على معاناة العذاب .

فريد : ان ماريا اكبر من ان تعطيني املاً يقوم على اساس الخدع والمراوغة .

سليم : ان كنتَ تأنس منها المحبة لك فما هذا الذي يقيمك ويُقعدك ؟

فريد : أبيها لا تبتُّ لي عهداً .

سليم : أليس هذا كفوءاً لحملك على التريُّب من امرها ؟

فريد : لعلَّ لها عذراً .

سليم : انا اوفدتُ اليها عجوزاً ذات اربة وحنكةٍ ودهاء . حدثتها عنك وامعنت في تشويقها ، فلما عادت اليَّ قلتُ ما وراءكِ يا عجوز ؟ قالت خزانة مقفلة .

فريد : ذلك دليل على فطنة الفتاة ، وليست الفطنة بريبة . فلا يبعد ان اظفر بالمرام قبل ان تغرب شمس هذا النهار . قال سليم : لا ساء فألك . اسمع وطأ قادمٍ فها انا أخلي لك الجوّ لعلَّ هذا القادم يبتغي تحديثك على انفرادٍ . وحينئذٍ ذهب سليم من باب واقبلت ماريَّا من باب آخر . رأت فريـداً معتبـاً فقالت : فريد ! متى تنقشع سماؤك ؟ يشق عليَّ ان اراك مكروباً . قال : يا جنتي

أرسلي ريحَ رضاكِ فتقشع سمائي ويُنسف كربي . قالت : إجلس إزائي فاحدثك لعلي أُعيد الى نفسك السكون — فأشرقت أسرَّة فريد وجلس وقال : اول مطلع الفجر بهيٌّ . فإيهِ . — قالت : أُخيَّ . انتَ تريدني قسيمة لحياتك وشريكةً لك في السرَّاء والضرَّاء ، بل انت معتقدٌ ان عندي كل سعادتك على الارض . فان يكون اعتقادك مصيباً او مخطئاً ذلك امرٌ لا اتصدى للبحث فيه و ... فقاطعها فريد وقد ارتجزت اوتارهُ وقال : ابتدأت بما يُنعش فيَّ الروح واراكِ ستنتهين بما يحطم ما بنفسي من بقية الرجاء . بعيشكِ ماريًّا لا أجهزتِ عليَّ . قالت تجلَّد يا روح ابنة عمك وارعِ سمعك ما ساقوله لك فانه كلام العقل الى العقل ، فانك ان استرسلتَ الى الغضب او الى القنوط حوَّلتَ الدرياق الذي اريد به شفاءك الى سمٍّ زعاف .

قال : بل السمُّ لو تذف من شفتيكِ لحولتهُ المحبة الى ترياق . قالت علمتُ الزواج عقدًا لا يحلُّهُ الّا الموت فعقدتُ المشورة مع ضميري والتمستُ مشورة روح القدس فوجدت ان بيني وبين الزواج حاجزًا لا يُنقض — فصاح فريد وقال : واتعساه . من الذي بسط لكِ هذا الرأي الوخيم . انتِ زنبقة الغاب الناصعة البياض ، انتِ وردة الحدائق المطيبة بعرفها اذيال النسيم . انتِ نسيجُ وحدكُ وفريدة عصركِ وتاجُ جنسكِ ، أأنتِ لا تصيرين لرجلٍ يجلّ مكانتكِ العالية ويقدّر خلالكِ الباهرة ، فبتربة ابيكِ إلا رحمتِ قلبي الكسير ، وان كنتِ لا ترحمين شبابكِ النضير . — قالت : ما انا برَبَّة امري . قال : لمن السلطان عليكِ وانتِ سيدةُ هذا القصر ومعبودتهُ ؟ — قالت : لمن في يده حياتي ، لمن لهُ وحدهُ نفسي وجسدي الى الابد . فلما سمع هذا الكلام اتقدت في قلبه نارُ الغيرة فقال : يا لنار الغيرة تلتهبني ايَّ التهام . مَن هذا الذي لهُ من قلبكِ كلّ هذا الحب العظيم ؟ قالت : هو ربي وعريسي والهي وفاديَّ يسوع المسيح . فهان عليه الامرُ بعض الشيء . وقال : ان المسيح مساهمٌ لا مزاحم . فما هو لقيصر لقيصر وما هو لله لله .

قالت : القلب كالنفس لا يتجزأ . قال : لقد تفتتَ كبدي غمًّا افلا ترحمين بؤسي ؟ قالت : ضمنتُ ليسوع من نفسي العزوبة ، فكيف انقض عهدي .

قال : اوَ تستحلين دم اخٍ ما لقيتِ منهُ غير الاخلاص والوفاء ؟ — قالت :

بروحي انتَ . لكني انزّهُ شهامتك وعلوّ خلقك عن التزوج بفتاةٍ اقدمت على خيانة عريسها يسوع المسيح .

ففار فائرُ فريد وقام منتصباً على قدميهِ وهو لا يدرى اقام ام قعد . واتسعت فتحةُ عينيه بحملقةٍ هائلة واسقط عن شفتيهِ المرتجفتين هذا الكلام : لقد عيل صبري وأُشكل عليَّ امري وضاقت عليَّ المسالك وتمثل شبحُ اليأس لعينيَّ . ماريّا ! ألا تعاهدين فتشتري حياة ابن عمكِ بكلمةٍ من فيكِ ؟ قالت : لو سألتني روحي لوهبتها . لكنك تسأل ما لا يُستطاع .

اخذ اليأس يدب في عروق فريد وقال بلهجة الغاضب الحزين : يا لضيعة الثقة . يا لخيبة الرجاء . اهذا منتهى تلك المحبة الرقيقة . لقد احببتك يا ظلوم منذ بدت برعمة الحب في غصن حداثتي الرطيب . لا محبة الاخ للاخت احببتك بل محبة النفس للنفس ذاتها . على حبك نشأتُ وفي حبك حييتُ وبحبك رقيتُ آمادي الى ذروة السعادة والرُفاه ، وكان نظري لا يشبع من تأمل عينيكِ النقيتين تسيلان لي من لذة الحب ما لا يُستوفى وصفهُ بلسان ، وكنت احسب ان هذا سيبقى وتزيدهُ الايامُ وما خطر في بالي مرةً انني راكبٌ متن الغرور . امّا الآن وقد طمست معالم حبكِ وتغيرت مرامي نفسكِ وصرمتِ حبالي وحطمتِ آمالي وضيّعتِ عهدي فما رؤفت بذلّي وانكساري ولا باليتِ بتوجعي واحتضاري . فما أصنعُ ؟ أأنتقم لنفسي ؟ ممّن ؟ أمنكِ يا ماريّا وانتِ اعزُّ عليَّ من روحي . النفسُ اكبرُ والشيمة اعلى والمروءة اعظم ، ولو شئتُ ان ابذل النفس لشيء من اللازم لقامت محبتي . نعم محبتي لقامت في وجه غضبي تردّني الى الوراء . انَّ المحبة لاقوى من الموت . وكان في منطقتهِ مدية استلّها من غلافها الفضي وقال : ليتكِ تقبضين هذه المدية وتغرزينها في هذا القلب الذي ما نبض الّا لاجلكِ ولا علق الّا بهواكِ . ليتكِ تخضخضينها في سويدائهِ كما تخضخض فيه حبكِ الذي خُتم بهذا اليأس المميت . ما اطيبَ الموتَ من يدِ الحبيب ! لكنكِ حتى بهذه المنّة تبخلين عليَّ . فانا أنا اطعنُ هذا القلب الذي فارقهُ السلام وامسى مستوقداً تتأجج فيه نار الجحيم . نارٌ يتصاعد لهيبها محرقاً الى الرأس ويلتف قتامها مغمياً على البصيرة والبصر . قال هذا بصوت يخنقهُ الغيظ اليائس ورفع يده ليضرب صدره ، فوثبت ماريّا وباسرع من رد الطرف ضربت على ذراعهِ بيدٍ اخذت

من الخوف قوة لا تدفع فسقطت المدية الى الارض فتناولتها وصاحت فيه باعلى صوتها وقالت : فريد ! فريد ! استعدْ وعيك . ان هذا فعل الجبناء الرعاديد لا فعل الابطال الصناديد . صدري لا صدرك تضرب او عدْ عن هذا الجنون، سكّن الجأش يا أخيَّ واذكر ايَّ فتى انت . ومن ايِّ معدنٍ كريم نُحتّ . اين عقلك الكبير واين حلمك الغزير ابهذا العمل الخسيس تدلُّ على حبّك لي .

قال : بعيشكِ ماريا دعيني اطعن هذا القلب الذي تفاقم كربه ونفد صبره. دعيني أُرق محبتهُ دماً يتدفق على قدميك . قالت هب لي هذه المدية دليلًا جديدًا على محبتك . وخبأتِ المدية في عبها وقالت : استعدْ رشدك واجلس ازاء اختك التي القيت في نفسها رعباً اشدَّ من الموت . فهمدت ثورة غضبه وجلس لا ينبس ببنت شفة، فكلمته ماريا بصوتٍ رخيم ارق وانعم من نسيم الصباح وقالت : أخيَّ : بماذا احلف لك على اني احبك كما تحبني واكثر مما تحبني احبك . الَّا ان محبتي لك لا طائشة ولا عمياء . محبتي تتبصر في عواقب الامور وتريد لك مستقبلًا حافلًا بالسعادة والهناء . لذلك لم اقطع لك العهد الذي طلبت اليَّ . وقد غمني جدًّا ان تسترسل الى اليأس فالى قصد الانتحار مع ما لك من سلامة العقل وشرف المحتد وصحة الايمان . اليس انَّ في فؤادي مثل ما في فؤادك وقد غلبتُ هوايَ . افترضى لنفسك ان تكون اقلَّ بسالة من فتاة كالنعجة تجفل من صوتٍ مباغتٍ وظلٍّ يمرّ ؟

قال فريد : عذرًا يا حبية فقد كنت فاقد الرشد، والآن وقد همدت فورتي لا اعرف كيف استرُ خجلي المذيب . لقد اشتريتِ حياتي وصيتي وابديتي ووقيتني شرًّا جسيماً وعارًا شنيعاً فلكِ عليَّ الشكر ما حييتُ . — قالت : ليكن شكرك لله لا لي . أصغِ الى ما القيه الى سمعك عن لسان اختٍ تحبك وتبتغي لك السلام والسلامة ورغادة العيش وراحة القلب وخلوهُ من كل غمٍ وهمٍ . انتَ تريد الاقتران بي لاعتقادك ان في ذلك كل سعادتك . امَّا انا فلاعتقادي ان الزواج حالة لا يريدها الله ولا ظفرتُ بدعوة اليها من لدنهُ . وقع في يقيني انَّ زواجنا على هذا الحال سوف يكون وبالًا عليَّ وعليك . افلعلك تحبُ ان تتخذ لك زوجةً تشقيك وتنغص عليك لذات الحياة ؟ قال : لا . — قالت : إذن عدِّ عن هذا المطلب ونبقى كلانا متحابَّين كاخوين الى منتهى العمر . ومتى

افرغتَ قلبك من محبتي على الوجه الذي ابتغيتَ وهي محبةٌ لا تجديك واخذت تلتمس تعزيـة السماء لا تلبث ان تتغير افكارك وتنطفىء نارك . وانت تعلم ما مبلغ حظوتك لديَّ . وها انا على ذلك اكبّد نفسي اقسى ذبيحة لالبي دعوة الله . فما ضرُّك ان تقرّب لله ذبيحة محبتك تشبهاً بي . او ليس جميـلاً بك ان تقربها في الاقل لهذه الخليقة التي تهواها الى اقصى حدود الهوى فتخفف مـا يؤلمها من عذابك في محبةٍ عقيمة .

قال : ان لم يكن ما تريدُ فأردْ ما يكون . لقد تصرَّم كلُّ املٍ وسقطت جميع الحِيَل . فلم يبقَ إلّا الصبرُ او القبرُ . لعـلَّ الله يجبر كسري بالسلوّ او يستعجل وديعتهُ فاستريح .

قالت : امضِ الآن الى منزلك واخلُ الى نفسك وسلِّم الى الله امرك تجد ولا ريب ما انت بحاجةٍ اليه من طمأنينةٍ وسلام . — فتلقى النصيحة بالشكر وقال : الوداع يا شقيقة الروح . الوداع يا طيبَ النفس ولـذَّة العيش ، ومضى وهو يمسح الدمع عن عينيه وخديه . حينئـذٍ جثت ماريًا على ركبتيها ورفعت ناظريها جهة السماء وقالت ودموع الفرح تتساقط على وجنتيها : شكرًا لك يا ابانا الذي في السماوات . يا من رحمتهُ الى خلقه اوسع من الارض والبحـار . شكرًا لك على انك يسَّرت لامتك انقاذ هذا الفتى من لجة اليأس والهلاك . انتَ تعلم انهُ لم يكن في محبتنا عيب ولا حيدٌ عن طريق وصاياك ، واني لاجل محبتك رفضتُ محبته الشريفة فامسى فريسةً للعذاب . بَرِّدْ بتعزياتك غلّة فؤاده يا ارحم الراحمين .

وبما انك تأمرني بان اترك كلَّ شيءٍ واحمل الصليب واتبعك ، وانا لا اعلم الى اين تحبُّ ان امضي ولا اين تريد ان اقيم ، ولا كيف اعيش لانجز امرك باكمل طاعة وتدقيق . فسهِّل امامي السبل وارسل لعينيَّ شعاعاً من نور روحك القدوس ، فتهتدي أمتك الى مواطن العمل بمشيئتك .

وانها لكذلك واذا رفقة تقف لديها وتقول : في الباب ناسكٌ شيخٌ يستأذن عليك ، قالت ماريًا : ما حاجتهُ اليَّ ؟ قالت : سألتهُ فـاجاب : خيرٌ . قالت ماريًا : لعله رسولٌ من لدن الله يحمل الى نفسي السلام . أدخليـه . فادخلت ناسكاً مجهولًا مشتملًا بالثوب الصوفي الخشن مما يلبسه الرهبان المتبتلون الى الله

في المقدس. وفي عِناه عكاز يتوكأ عليها وبجسمه نحول وبوجهه تجعُّد وشحوب. أجال نظره في القاعة من كل صوب فتهلَّلت اسرَّته وقال بصوت خفي : هذه القاعة لا تزال على عهدي بها ، وهذا رسمي في موضعه لكنَّ عليه علامة الحداد حزناً عليَّ . وهذه ماريّا فلذة كبدي لم تفقد والحمد لله شيئاً من صحة البدن وملاحة الصورة وتورُّد الخدين ، انَّ في ذلك لدليلًا على نقاوة وصون زهرة العفاف من عوامل التغيُّر والذبول - واتَّجه نحو ماريّا وقال: حيَّاكِ الله يا ذات المحاسن والحصانة والخلق الكريم . اما هي فاول ما وقع نظرها اليه تهلَّلت روحها ومال قلبها بالحب اليه فدُهشت من ذلك وقالت في نفسها : من يكون هذا الذي يركض للقائه فؤادي ? ما هذه التعزية اللذيذة التي صُبَّت على نفسي اذ وطأت قدماه عتبة بيتي ! ثم رحَّبت به وهشَّت له وسألته : مَن تكون يا سيّدي المحترم وما حاجتُك فتُقضى ان كانت مما يستطاع ، قال : ألم تعرفيني يا ماريّا تفرَّسي في وجهي ألستُ اباكِ لا تحدثي ضجّاً فاني جئتكِ متنكرا لا احب ان يعلم بقدومي احد سواكِ .

فلمّا عرفته لم تعد تملك نفسها من شدَّة الفرح وقالت : تباركت السماء ، يا للغبطة ويا للسرور !

ما اجمل هذه الساعة الحافلة باسباب المسرَّة والهناء وانتعاش الروح . واقبلت اليه فوقع كلٌّ منهما على العنق الآخر يقبّله ويبلُّه بدموع الفرح،وقالت: آه ، يا ابي ، كم عذَّبني فراقك وكم سألت الله ان يردَّك اليَّ .

قال : اجلسي فاحدثكِ هنيهةً فانَّ وقتي قصير وثمين . فجلس كلاهما وبدأ يتكلم قال : منذ وفاة امّكِ الصالحة الذكر أخذ وجه الدنيا يتبدل لي. فكل ما كنتُ فيه من نعمة وكرامةٍ ومكانة ونفوذ كلمة وبُعد صيتٍ وصداقات نبيلة ثابتة القدم في المودَّة والاخلاص والوفاء. كلُّ ذلك انقلب الى امورٍ انظر اليها بعين الكراهة والاشمئزاز ، وصرت اسمع في باطني نداء لا ينفك يقول لي: يا هذا قد نلتَ حظّاً من الدنيا تُحسد عليه ثمَّ عرفتَ فراغها وزوالها فقمْ وابدُر لاخذ حظّ من الآخرة فتفوز بسعادة لا تزول. خلِّ الدنيا لاهلها واترُكْ كلَّ شيء واتبع يسوع الى الجلجلة غير ملتفتٍ الى الوراء. وبعد تردُّدٍ طويل حصل لي اليقين بانه صوت الله يقرع مسمع نفسي دعوة الى سيرة جديدة أجدى عليَّ .

فلم اجد بدًّا من تلبية النداء. فخرجتُ خلسةً من هذه الدار ملتحفاً ثوب الظلما. حتى لا اجد عائقاً من انسان وقلتُ يا ربّ قدني الى حيث تشا. وسريتُ وانا لا اعرف الى أين واذا بي قد انتهيتُ الى ساحة دير قنوبين وجلستُ افكر في شأني الى مطلع الصبح ففُتح باب الدير ورآني راهبٌ فقال ما حاجتك يا أخي ؟ قلت : ان يُحسن اليّ فأقبل راهباً في هذا الدير المبارك، فاخذني الى كبير النسّاك فخلا بي وتحدّث اليّ طويلاً فاوقفته على كلّ امري ، فلمّا رأى صلابة عزمي مع علمي بما انا مقبلٌ اليه من الحرمان من كلّ طيبات الحياة قبلني اولاً في صفّ غير الناذرين وكان من سلوكي ما اكسبني رضا الجميع. فاجمعوا على اهليتي للنذور الرهبانية فتقيّدتُ بها وصار تأهيي للكهنوت المقدس . فرقيتُ الى شرفه العظيم وصرتُ معروفاً بالاب مارون. وما زلتُ اسعى في طريق النسك بخطواتٍ واسعة وفرح ونشاطٍ اتبع الرب يسوع غير ملتفتٍ الى ما ورائي حتى اخذتِ تجولين في خاطري صبيّةً في شرخ الشباب محلّاةً بجمالٍ رائع يسترق العيون فاشفقتُ عليكِ من مخاطر العالم الغرّار . اذ ليس لكِ من يرعاكِ لا أبٌ ولا أمٌّ ونفسكِ اعزّ اليّ من كل ما تحت السما ، غلبَ هذا الفكر عليّ فنغّص عيشي وحرمني لذة الصلاة والتأمل السعيد ، فاقبل الى بدني النحول ، ورأى الرئيس تبدّل حالي فسألني فكشفتُ لهُ عمّا بخاطري فرقّ لحالي وقال : ان شئتَ ان ترجع الى بيتك فتنظر في شؤونه وتحتاط لامور ابنتك لتوجّه بها الى مستقبل امين فذلك اليك ، تتمّ مهمّتك ثمّ تعود الى ديرك خالي البال مما يلقي اليك قلقاً وكربَ نفسٍ فيعاودك السلام وصحة البدن فتتفرغ لعبادة الله وخدمته بقوّةٍ ونشاط ، لا تألُ جهداً في انجاز ما انت منطلق فيه باقصر وقتٍ مستطاع. تركتُ خلوتي المحبوبة واتيتُ لاعمل ما يريح بالي وبالكِ إذ يحصل لي الركون الى مستقبلٍ يؤمن لك السعادة في الدنيا والآخرة ، فهلّا توافقين على تدبير يبدو لي كونهُ مبلغاً الى الغرض ؟ قالت : مُرني . تجدني اطوع لك من بنانك . قال: ان فريدًا ابن عمكِ هائمٌ بكِ منذ الصغر وقد وعدته بان تصيري له زوجةً وهو يقدر قيمتك ويتزلك من نفسه في المكان الارفع . فأحب ان ازفّك اليه اليوم لاني رأيتهُ الحظ الافضل الذي تجدين عنده ما اورمهُ لكِ من رغد العيش وهنا. الحال الزوجية لانثا. عائلةٍ مسيحية على حسب قلب الله . —

قالت: لم يبقَ يا أبي المحبوب من موضع للكلام على الزواج فاني بعد امعان النظر وطول التأمل نذرتُ بكارتي لعريسي يسوع المسيح فانا مخطوبةٌ له. هيهات ان اخون عهده فاصيرَ لرجل. قال: واذا امكن حلُّك من هذا النذر بطريقةٍ قانونية فهل تصيرين زوجةً لفريد؟ قالت: لا اريد ان يحلّني من نذري غير الموت، والموت نفسهُ لا يقدر ان يفصلني عن عريسي يسوع المسيح محبوب نفسي الوحيد الى الابد. قال: هذا يسرُّني جدًّا. لكنني لا ابرح مشفقًا عليكِ من مغويات الدنيا وتقلّب القلب البشري. فما يكشف من خوفي الّا ان تنضمّي الى راهباتٍ ناذراتٍ نظيركِ في احد اديارهنَّ فتكوني اكثر حصانة واقصى عن الخطر. قالت: ابي! بكل رضًى وسرورٍ اتلقى مشورتك هذه الجامعة بين الحكمة والصلاح والحب الوالدي، ومثلها كانت مشورة روح القدس فوطنتُ النفس على العمل بها ولم يبقَ الّا ان استشيرهُ في الدير الذي انضوي اليه. فاكشف عنكَ الخوف وأخلِ قلبك من الاهتمام واعلم اني ما ابطأتُ في اخراج قصدي الى الفعل الّا ما كنت اجهله من امرك فلا اعلم ان كنتَ حيًّا ام تكون. ها قد وُهبت العلم بكل امرك فلن يطول الوقت حتى انفذ مشورتك ثمَّ اخبرك فتزيد اطمئنانًا اليَّ. امَّا املاكك التي لك في هذه البلدة وغيرها ومحتويات دارك هذه فلستُ بحاجةٍ الى شيء منها. حسبي عريسي يسوع لي به الغناء عن كل شيء. قال: أجمل بهذا التخلي يا بنيّةُ محبّةً ليسوع المسيح فانه في محبّتنا أخلى ذاتهُ واشترانا بدمهِ الكريم مسمّرًا في صليب. ففي سبيله وهبت لكِ نصف املاكي من ثابتٍ ومنقول. فان شئتِ صرفتِهِ الى الدير الذي ستدخلينه، وان شئتِ وزّعتِ كلّهُ او بعضهُ على المساكين. امَّا النصف الآخر فسيكون النصيبَ لدير قنوبين. كل ذلك سيمضي بالوجه الشرعي بعد رجوعي الى الدير. — قالت: بالشكر تقبّلتُ منحتك السخيّة، غير اني لا ادري كيف ادبّرها فتولَّ انت تدبيرها على ما ارتأيت. وحُطَّ عن كاهلي حملها الثقيل. قال: لكِ ما اردتِ، وعليكِ ان تعلميني في ايّ دير تكونين— قالت: اكثر من ذلك ستعلم ويكون لك طيبُ نفسٍ كثير.

قال: على هذا العهد اودّعكِ يا ولدي، فكوني وديعتي الثمينة بين اذرع ربنا يسوع وامّه العذراء سلطانة السماوات والملائكة والقديسين. ما عدتُ

اخشى عليكِ سوءا وانتِ في هذا الحصن السماوي المنيع . ووقع على عنقها يقبّلها وتقبّله وضمّها الى صدره بين ذراعيه وبكيا وقال : الى اللقاء يا حبيبة ابيكِ . الى اللقاء في دار السعادة والخلود ، ليس بيننا ثالث يرى ما دار بيننا من حديث فليبقَ سرًّا مكتوماً حتى يتمّ ما توافقنا عليه . وانطلق لسبيله يحجبهُ ستارُ ليل حالك الظلام . وتبعته ماريا تشيّعه الى باب الدار ، ولما انتهى الى قنوبين أطلع الرئيس على ما وقع له وسأله المعاونة على تنفيذ ما تقرّر في شأن املاكه فتمّ له ما اراد .

امّا ماريّا فخلت الى نفسها وفكرت في ما تصنع واستخارت الله سبحانهُ فهبط عليها الإلهام فاختارت الدير الذي خارهُ لها الله وعقدت القلب على المضيّ اليه .

٥

صباح يوم من ايام شهر ايار المبارك المختص بتكريم السيدة العذراء المجيدة والدة الله ، كان في مدخل دير قنوبين شابٌ جميل الصورة حسن البزّة يطلب مواجهة الرئيس لحاجة يعرضها لديه . والساعة صارت المواجهة ومُدّ بساط الحديث وما هي الّا ساعة حتى جيء بالشاب الى كنيسة الدير وقد بُدلت ملابسهُ الانيقة بالثوب الرهباني يكون عادةً من صوف خشن قاتم اللون او من خام غُيّر لونهُ بصباغ النيل . فمنح البركة بالصلاة على عادة الرهبان في قبول طالب الترهب وأحصي في عدد المبتدئين في السيرة النسكية ، والتفّ الرهبان من حوله في غرفة الاجتماع يتعرفون اليه ويهنّئونه بسيرته الجديدة متمنّين له النجح والثبات . ورأوا في وجهه ملاحةً لا تشبع منها العين وفي نطقه طلاوةً وادباً وفطنةً فمالوا بقلوبهم اليه وجعلوا يتحدثون عنه همساً قائلين : لم نرَ قطّ مثلًا لهذا الفتى فهو في ما يبدو لنا من براعة خلق واخلاق فان كان باطنهُ مجمّلًا كظاهره فان هو الّا لؤلؤة غالية وتحفة نفيسة ودرّة لا يعدلها ثمن . ثم انهُ وقف فيهم جامعاً يديه الى صدره وقال : ان عناية الله التي لا تغمض عينها عن خلائقه هي التي ساقتني الى هذه الارض المقدسة لاجمع لنفسي كنزًا من الفضيلة والاستحقاق . فماذا اتمنى زيادةً على ما احسن به اليّ من العيش بين ملائكة متجسّين في هذه البرّية المختارة التي لا يبرح روح الرب يرفّ عليها فوق غمام البخور

المطبق الفضا . حيث بكثرة رحمته يتقبلُ تسابيح المغرمين بحبه المباركين اسمه القدوس ليلَ نهار . فاجابه الرئيس وقال: انتَ نعمَ الفتى ستكون نعمَ الراهب بمعونة الله ، فنتمنى لكَ بقاء. هذا الفرح النقي متزايدًا حتى يتكمَّل بفرح السعادة والمجد في السماء. ومن الآن يُطلق عليك اسم مارينوس الذي اتخذتهُ من حوض العماد ، وعينًا لك اخانا الاب مارون مرشدًا روحيًا ومدبرًا يرشدك الى ما ينبغي عليك عملُه او تركه لتسير في معارج الفضيلة الى ذروة الكمال . فلازمه واتخذه لك ملاكًا حارسًا وكن منتصحًا بنصحه ومصغيًا اليه ،ولقاء اهتمامه بشؤونك تتوفر انتَ على خدمته واعانته على حاجات شيخوخته واوهانه مما يعسر عليه قضاؤه بنفسه . والله سبحانه كفيلٌ بإثابتك اذ تعمل كلَّ شيءٍ لتمجيده ومرضاته . ــ فقال الاب مارون : شكرًا لك يا ابانا الرئيس على ما تبديه من العناية بي للتخفيف من اثقال الشيخوخة وان كنتُ لا اتبرمُ منها بل احسبها منحةً من الله لزيادة اجري . ــ وقال مارينوس : ما اتيتُ الّا لاخدم واطيع واذلّل هذا الجسد بالصوم والصلاة والكدّ والتعب . فسأسمع لمرشدي الاب مارون كأنه للمسيح واخدمه بفرح ونشاط ، كما اعدُّ نفسي خادمًا لكلٍ منكم ولي في ذلك فخرٌ وسرور . فقال الرئيس : يباركك الربُّ ويشدّد عزمك ويزيدك رغبة في البرّ وصبرًا على مشقّات الحياة النسكية فتصبح من اقرب النسّاك زلفةً لديه .

ارفضَّ المجلس وانطلق كلٌّ الى عمله ، وتبع مارينوس مرشده الاب مارون ليتلقى تعليمه ونصائحه ويقوم بخدمته المسندة اليه . واخذ بالمواظبة على مجاراة النساك في قمع الاهواء وضبط الحواس عن مسارح الشهوات والتمرس بالطاعة والصلاة والصمت المتأمل وعمل اليدين حتى احرز السبق على كثيرين حتى الشيوخ . فاكبروا فضيلته واعجبوا بسرعة تقدّمه على حداثة عهده في الدير وما هو فيه من سنّ الشباب ، فاجمعوا على حبّه واكرامه ، وكان هو كلًّا للكل ومقدّمًا على نفسه الكبير والصغير ، مجمّلًا باللطف والكياسة والفطنة والنزاهة والقناعة مأكلًا ومشربًا وقلّة الكلام مع فصاحة المنطق وحلاوة اللسان وعلوّ الشمائل والاخلاق . وقد عاهد عينيه على ان لا تنظرا الى وجه انسان رجلًا كان او امرأة فهو يحدّث الآخرين مطرقًا رأسه ينظر الى الارض ، وكانوا يتوقون الى معرفة لون عينيه فلا يمكّنهم من ذلك حتى صار اذا استحى

المؤنسة لكن لا في مثل هذا اليوم – قال الزائر: دعت الحال فلم يبق للتأجيل مجال. زارني في الليل الفائت طيف راهب وكأني تفرست فيه فاذا وجه رجل الله الاب مارون، وسمعته يناديني بصوتٍ خافتٍ ويقول: عبدالله! عبدالله. اني على سفرٍ جئتك مودعاً، فان شاقك ان نلتقي في مدينة السعادة والبقا. فاحمل حملي وتقيَّد بقيودي قبل خروجك من دار الشقا. واني مؤتمنك على وديعةٍ حيَّة وعزيزة عليَّ فاحتفظ بها، ولفطنتك غنًى عن الاسهاب، فلمَّا استيقظت جعلت افكر في هذا الحلم وبدا لي كأنه من الله لامرٍ يريده مني فاتيت اطلب تعبيرًا لحلمي. فقال الرئيس هل تمتُّ الى الاب مارون بقرابةٍ؟ قال: كلانا من أسرة واحدة لكنَّ مودَّتنا مبنية على الفضيلة لا على النسب. قال الرئيس: كيف تأتَّى لك ان تسبر غورهُ مع ندرة تحدثك اليه؟ – قال: حامل المسك لا تخفى روائحه، رأيته اكثر من مرَّةٍ في اسواق طرابلس اذ كان يهبط مع آخرين لبيع مصنوعاتهم من الخوص ولم يكن لي معه شأن فاحدثه حتى كان انهُ نزلت بفتاتي الوحيدة علَّة صدريَّة تعذَّر شفاؤها على الاطبا. واشرفت منها على الموت فنالني من لاذع الحزن ما ملأ نفسي مرارة وأغصني بريقي، ولمَّا ضاقت بي الحيل وسدَّت بوجهي ابواب الفرج خرجت الى السوق كفاقد الرشد لا اعي على شي. فقُدر لي ان التقيت برهبان هذا الدير المبارك فاقبلتُ أليهم وانا لا اعرف احدًا منهم وقلتُ: يا رجال الله اما تغيثون ملهوفاً. فاجابني اكبرهم سنًّا وقال: ما بك يا اخي. فاخبرته بامري وبكيت حتى ابكيته ومَن معه، وقلتُ لعلَّ الله يجبر كسري بدعائكم، فقال: اتؤمن بانَّ ليسوع القدرة على شفاء ابنتك؟ قال: وبانه ولو ماتت يقيمها من بين الاموات كما اقام لعازر بعد ان لعبت به ايدي البلى والفساد، حينئذٍ أخذ الناسك ماء وباركه وغمس فيه صليباً من خشبٍ ورفع عينيه الى السما. قائلاً ثلاث مرات: استجب لي يا رب. ثمَّ قال لي: انفض هذا الماء على فتاتك فتبرأ بقوة يسوع المسيح، ففعلتُ فتعافت لساعتها الفتاة، وتدفقت على قلبي عواطف الفرح والشكر وخرجتُ اشيع الآية واحمدُ الله. ومنذ ذلك اليوم الميمون اتصلتُ بالاب مارون وعرفتُ ايَّ حظوة له لدى الله وانه من ذوي قرباي وتوثقت بيننا عرى الصداقة والولا. – فقال الرئيس: الآن عرفتُ لماذا

تحبُّ ديرنا وتؤنسنا بزياراتك وتتحفنا بنفائس هداياك . قال : كيف لا احبكم يا رجال الخير بعد ما رأيت من محبة الله اكم قال الرئيس : ان كان فينا من يصنع خيرًا فلا فضل له لانه انما يصنعه بالقوة المفاضة من علُ . حينئذٍ ارسل في طلب الاب مارون تلبيةً لرغبة عبدالله وسأل هذا الرئيس قائلًا : الا اجد عندك تعبيرًا لحلمي الذي قصّيته عليك ? قال الرئيس : ما اوتيتُ علم تعبير الاحلام ، ومن الاحلام مـا هي اضغاث لا تشرح بتعبير صحيح ، واذا كان مدار حلمك على الاب مارون فقصّه عليه لعلّه يُلهم الى تعبيره — فقال عبدالله : يطيب لي الآن ان أُسمعك ما تطيب بـه نفسك ويفيض السرور على جمهورك الكريم — قال الرئيس : ما انتَ الّا بشير خيرٍ فشنّف بكلامك اذناً مصغيةً اليك . قال :

ان لرهبانكم في المدينة وضواحيها صيتاً يزري بالمسك الفتيت . ذكرهم شهدٌ في الحلوق ونطقهم نغمٌ في الاذان ، في وجوههم الخير ، ومن شفـاههم يتدفق السلام ، وفي عيونهم تـأْلق السذاجة والعفاف وكلّهم رافلٌ في بُرد الكمال ، وماذا اقول في أحدهم مارينوس بعد ان لقَّبه الناس بالعجيب . فهو على نضارة شبابه قد احرز النصيب الاكبر من قداسة السيرة وخلال الخير ما يحبّب الفضيلة حتى الى اعدائها . ما اجمله حين يدخل المدينة وعلى منكبيـه صفّان من السلال يجتاز بها الشارع ولآلئ العرق تتساقط من جبينه الوضّاح وللعفة المقدسة وردتان متفتحتان على خديه البارزين ، فترى الناس حوله افواجاً لابتياع ما يحمله من سلال وفواكه وبقول ناثرين اثمانها بلا مساومة ولا حساب ، ولكي لا يتّجه اليه حسدٌ او يُجرح له شعور يشترون بضاعة رفاقه ايضاً بالثمن الذي يفرضون ، عيون الكلّ اليه لينعموا بتنظر ما أُفرغ عليه من جمالٍ وأدبٍ ورزانةٍ بشاشةٍ وكمالٍ ضافٍ على شباب مشوق . عيناه الى الارض ولا يرى في اجلال الناس اياه الّا داعياً لزيادة التعمق في الاتضاع ، ودعاؤه لسائليه ما رُدَّ مرةً بدون ثمار .

قال الرئيس : جميع الرهبان عنده هذه الخلال الصالحة ومن اجلهـا اجمعت على حبه كل القلوب . ووقع لي احياناً ان شغلته عن المضي الى المدينة بصحبة الاخوة فكانوا يعودون وفي افواههم الشكاية من كساد بضاعتهم فيبيعونها بابخس الاثمان ، فالواقع ان مارينوس راهب راجح الحصاة طاهر الذيل صافي

السريرة متين العقيدة قنوعٌ صبورٌ مطيع مولع بالزهادة والفقر الاختياري مواظبٌ على اراضة الجسد وكبح الاهواء . وفي الجملة هو مثالٌ في البرّ لكل ناظريه .

وفيا هما في هذا الحديث اقبل الاب مارون يسنده مارينوس وراهب آخر من الجانبين فقام عبدالله ولاقاه الى الباب ملقياً عليه تحيّة الرهبان وهي : المجد لله . فاجابه الاب مارون بالتحية المألوفة وهي : دائماً ، فليباركك الرب . وقال عبدالله وقد غمّه ما رأى من ضعف صديقه : ممّا تشكو يا ابانا المحترم ؟ — لا اشكو الا من طول غربتي في وادي الدموع ، لِمَ الشكوى وانا ارى اسبابها تتقطّع وقد ازفت ساعة الرحيل ، فلم يبق الّا الاكليل المهيّأ لي في يد الديّان العادل الرحيم الكريم . — قال عبدالله : رُزقتَ اطول الاعمار ، فانت منارة هدى وينبوع بركة واحسان. قال الاب مارون: لا تدعُ لي بطول الغربة فانّ لي حنيناً الى الوطن لا موضع معه للسلام. فقال عبدالله مشيراً الى مارينوس وهذا الراهب اللطيف اراه اتبع لك من ظلك ، لله انتما من صاحبين تماثلا خَلقاً وخُلقاً . فلولا التفاوت في السن لقيل انكما توءمان . والتفت الى مارينوس وقال : ما لشمسك غابت عن المدينة فامست تتشوّق الى مطلعك البهيّ ؟ اجاب مارينوس قائلاً الراهب يا سيدي قيد اوامر الرؤساء . — فقال الرئيس : رأيت منه لباقةً في خدمة الدير واستقامةً في خدمة المرضى من اخوتنا الرهبان فأقمته لهذه الشؤون وهي تقتضي بقاءه في الدير فلم يعد يخرج منه الّا اذا اضطررت لعيادة مريض في الجوار فيخرج بصحبتي فيتبارك به المزورون وكثيراً ما يؤتى المريض الشفاء بدعائه لان الله يستجيب له لنفع المؤمنين . والآن وقد صار الاب مارون اشدّ حاجةً اليه من قبل ترتب عليه ان يلازمه متفرغاً لخدمته التي لا يحسنها سواه . أُجلس الاب مارون على كرسي تلقاء عبدالله وقال له : ما تبتغي من صديقك الراحل يا صديقي الكريم ؟

قال : ان اراك متنعّماً بقربك على قدر حظّي من فسحة الزمان ، قال الاب مارون : ليس سدًى ارسلك الله الينا اليوم ، فستشهد انطلاق نفسي من سجنها وتشيّع جسدي الى المسكن الاخير . لقد ازفت ساعة زوالي ساعة تهلل روحي بالمصير الى الوطن المحبوب ، فاوصيك بنفسك ان تقصر همك على

ابلاغها سعادة المختارين . وبابني مارينوس ان تسدّ فراغي تجاهه الى يوم اللقاء الابدي السعيد ، وهذه وصيّتي الى اخواني الرهبان الاعزاء . ان اقتصروا من تكريم دفني على اقلّ مما يُصنع لامثالي من الناسكين . وواكبوا نفسي المسكينة بصلواتكم الى امام المنبر الرهيب . امّا ابني مارينوس فليغمض عيني بيديه الرئيفتين ولا يذرف ولا نقطة من دمعه حزناً عليّ ولا يفتح منفذاً لدخول الجزع الى قلبه الرقيق ، وقد حفرت في صدره وصايا يترتب على حفظها سعادته في هذا الدير . اغفروا لي يا اخوتي وانا غافرٌ لكم كما غفر لجميع الناس مخلصنا الرب يسوع المسيح . حلّني يا ابانا الرئيس من قيود مساويّ لانطلق بسلام من قيود هذا الجسد الكثيف — فتردّد الرئيس في منحه الحلّ السرّي وقال : بعافيةٍ انتَ يا ابانا فلمَ توجع قلوبنا بهذا الحديث . قال : حلّني يا ابي لتخرج نفسي بسلام . قال الرئيس : ما هذا الالحاح وانتَ في حالٍ من الصحة لا تبرّره . قال : صوتٌ من السماء صارخٌ في اعماق نفسي ان ابتهج يا مارون فقد اتممت جهادك وهُيّئ لك اكليل الثواب هلمّ فخذهُ من يد الملك السماوي العادل الكريم . فأفرغ عليّ حلّةَ العرس لاجلس بلا وجلٍ في وليمة سيدي يسوع المسيح . وجثا قارعاً صدره معلناً ندامتهُ ومحبتهُ الكاملة للرب يسوع فمنحه الرئيس الحلّة السرّيّة والغفران الكامل وقال الحاضرون : اذكرنا يا ابانا اذا اتيتَ ملكوتَ الله . فبسط الاب مارون ذراعيه ورفع عينيه جهة السماء وقال : ايها الرب الحنا الكثير المراحم الذي لا يفرغ جودهُ ولا تُحصى مواهبه بارك هذا الدير وعبيدك المنقطعين فيه الى عبادتك وجميع المحسنين اليه بايّ وجهٍ ، جازهم يا رب في احسانهم اليّ انا عبدك الحقير ، وليشملهم امانك وحبّك وحلمك الى الابد . ثمّ حدّق في ما فوق فاخذه انجذاب وفارقته قوى الحواس وجعل يلفظُ كمن يرى في حلم كلمات متقطعة : ماذا أرى ؟ الشريف عبدالله على قدمَي المذبح في ثوبٍ رهبانيّ . سقياً لك ايها الصّديق المتّقي الله ها انك قد توشحتَ بالقداسة والبر — مارينوس المحبوب الشهيّ . اوّاه ! اوّاه ! ما هذا الذي أراهُ يسعى دائراً من حولهِ كأنّما يزيد بهِ شرّاً . افعى هائلة المنظر فغرت شدقيها ، الحذر الحذر يا مارينوس ابني . قد آلمته لدغتها . واحرَ كبداه ! ها هو يتململ من شدّة الخوف والألم . لماذا لا يُعالج ولا تُراق تعزية على قلبه

الكبير . لِمَ هذا الاجماع على خذلهِ . ما لي اراه مزدرًى منبوذًا ومقصًى عن العيون . تنفجرت ينابيع دموعه فحفرت خدودًا محزنة في وجنتيه . كيف امسى فريدًا وحيدًا لا مؤنس له ولا عشير . لا تقنط يا بُنيَّ ولا ينل منك الفشل ان الروح التي فارقتك ان تبرح ترفرف فوقك وحواليك . تقوَّ ، تجلَّد ، تعزَّ ، فان مجدك في النعيم لا يُقاس به هوانك في وادي الدموع . ما اجمل رتاجك المرصع يا اورشليم . مَن هذا الجالس على عرش السحاب مكللًا بلامعات النجوم . من هذه الملتحفة بالشمس المكلَّلة بالكرامة والمجد والبها . من انا يا سيدي فتخرج لاستقبالي بهذا الموكب العظيم من اهل السما . أسرعي يا نفسي أسرعي أخرجي من هذا الجسد الترابي الحقير ، ارتفعي الى ما فوق افلاك الكواكب النيرات ، ارتفعي حلّقي الى حيث ينتظرك ملك المجد . خذ يا الهي هذه النفس التي ذابت في حبّك وأحرقها التوق اليك . وعند لفظهِ هذه الكلمة الاخيرة لفظ روحه الطاهرة بهدوء وفرح وسلام . فبكى مارينوس وصاح بصوت يخنقه الشهيق : ابي ! ابي لماذا تركتني . لماذا لا تأخذني معك . واحزني لم تنقضِ ايامُ غربتي بعد . ها قد توارى دليلي الامين وانا في منتصف الطريق . ثم دنا من الاب مارون فاغمض اجفانه وهو يبكي ويقول : ايتها العينان التقيّتان اللتان طالما ألقتا عليَّ نظرات رعايةٍ وحنوٍّ واشفاق . اغتمضا على وسن الراحة والسلام الى يوم تنفتحان للنور البهي الموكل به البقا . ثم قبّل يده قائلًا : الى ثواب النعيم ايتها اليد الرئيفة التي افاضت عليَّ سوابغ الاحسان .

وكان كلُّ من شهد هذا الموت الصالح يقول في نفسه : حقًا ان هذا ليس بموت انما هو انتقال من الموت الى الحياة . وقال عبدالله : ان الحسد على الموت اغرب ضروب الحسد . لكن من لا يحسد على مثل هذا الموت فهو احمق لا لبَّ له . فيا صديقي ونسيبي الراحل الكريم . قد اوصيتني بان املأ الفراغ الذي تركتَ ، فها اناذا منذُ الساعة انفذ بلا تردُّدٍ ومن وجه الكمال ، تخلّيت لهذا الدير عن كلِّ ما ملكت يدي ما عدا حصة افرزتها معاشًا لابنتي التي تبتلت الى الله منذ عامين . فهلّا اجد لديكم رحمةً لنفسي فانضمَّ الى جماعتكم المقدسة واكون فيكم الراهب الاوضع والاخير ؟

فاجابه الرئيس وقال : قلوبنا مفتوحة لك وما انت الّا منحةٌ من فضل

الله لنا ، ستكون فينا الاكبر والاعز . فما عليك الّا ان تمضي فتدبّر شؤون بيتك ثمّ تعود الينا خالياً من كل همّ . قال ان املاكي صارت وقفاً مؤبدًا لديركم وتقودي نصيباً للساكين اخوة المسيح ، ومنذ الآن احمل الصليب واتبعه غير ملتفتٍ الى الوراء . فقام الرئيس وباركه وسأل الله ان يطبع على مقاصده ختم الثبات . وفي هذا الاثناء دُقّ جرس الدير دقات حزنٍ متتالية فحُمل الميت الى الكنيسة واوقدت حوله الشموع طيلة الليل ، ولبث مارينوس جاثياً بجانبه كشمعةٍ حيّة يحرقها الحزن مُخمدًا بالصبر والتسليم والصلاة غير ان ذلك لم يقوَ على نزع الطبيعة مرهف شعورها بفقد من تحبه كأبٍ وتعدّه كاكبر محسن وبمكان ملاك حارس فكان يغالب العاطفة بافكار من الايمان يبرزها بمثل هذا الكلام : أبي أأصلي من اجل روحك الطاهرة ام اسألك الصلاة من اجلي انا الشقيّ ؟ أأبكي لخروجك من هذا العالم الزائل ام افرح بانتقالك الى العالم الاسمى الذي ليس لسعادته انقضا . ؟ انا بين الطبيعة الضعيفة والايمان القويّ فان بكيتك فلأن فراقك نفذ قلبي الى الجلجلان وان تجلدت فلاعتقادي انك صائر بالموت الى الحياة ومن ارض الغربة الى الوطن السعيد . نمْ مستريحاً واجعل عين روحك الى مَن تركته في ارض غربته تحدق به المخاطر من كلّ صوب ، لا ينلْ من نفسي الجزع فخلاصُ الرب حاضر وموعد اللقاء قريب ولن يكون من من بعده افتراق .

في اليوم التالي دُفن الاب مارون مأسوفاً على فضائله الجمّة وبكاهُ عبدالله بكاء من فقد احبّ الناس اليه وعاد النسّاك فاجتمعوا يتبادلون عبارات التعزية ، حينئذٍ قال الرئيس لعبدالله : ها قد رأيتَ تعبير حاملك وورثتَ سيرة صديقك الذي أخلى لك كوخه لتملأ فراغه وتنسج على منواله ، ونحن تنفيذًا لوصيته لك بتلميذه مارينوس نرغب اليه ان يتخذك اباً له فيلازم صحبتك ويتوفر على اطاعتك وخدمتك في كلّ ما تدعو الحاجة اليه .

٥

لقي مارينوس في صحبة عبدالله من الملاطفة والحب والايناس ما همّد عنده جذوة حزنهِ على مؤدّبه ورفيقه وحبيبه ابيه في المسيح الاب مارون ، وتقضت له ايام جميلة اتته بما لذّه من اثار الفوائد والتعزية والرضا والسرور

وكان يقوم بخدمة ابيه الروحي الجديد في شؤونه الروحية والزمنية بطيب نفس وفرح ونشاط ويترقى في مدارج الكمال ترقياً محسوساً أعجب به اخوته الرهبان واولد فيهم حسداً مقدساً اذ كان يحرز بـه التفوّق على كثيرين تقدموه في السيرة النسكية وشاخوا في ممارسة الزهد والتقشف واطلاب الفضائل ولم يبلغوا مبلغه. فكانوا لذلك يحيطونه بالمحبة والاكرام ويكبرون فضله وفطنته ويعوّلون في شؤون كثيرة على مشورته ورأيه . وكان يمارس صُنع الخوص على مألوف عادته ويحمل مصنوعاته الى المدينة فتلاقي رواجاً عظيماً لكن الرئيس كان يعفيه احياناً من هذا العمل ليصطحبه في زياراته النـادرة ذهاباً في ساعات من النهار لا يفوتهما معها حضور الصلاة الجمهورية في الدير .

وكان ذات يوم ان زائراً قدم الى الدير فسأله البواب عن اسمه وحاجتـه فقال : انا كنعان رزق من ضواحي طرابلس فادعُ لي رئيس الدير انَّ لي كلاماً اقوله له : قال البواب : استرحْ يا سيدي من تعب الطريق إجلس على هـذا المتعد فاجيئك بكأس شراب وعمّا قليل تنتهي الصلاة فاخبر الرئيس بقدومك — فقال : لا يسعني الانتظار ولا بي عطش فاشرب . انَّ الامر خطيرٌ واولى بان يُقدَّم على الصلاة . فمضى البواب ليوقف الرئيس على الخبر وجلس كنعان يغالب ما يساوره من غضب واضطراب يقول في نفسه : يجب ان اقمع سورة الغضب لاني ان رفعتُ صوتي اسمعتُ كل من في الدير فيتسع الخرق وتشيع الفضيحة . وربما تسلَّح الراهب بالانكار وقال : اثبت زعمك ومدَّعاك ، هات شهودك ، فمن يشهد لي ؟ ان الحادث في طيّ الخفا . مَن رأى في الظلمة ليشهد في النور. أأشتري شهوداً ؟ هذا في طاقتي . وشهادتهم على الراهب لا تحسب زوراً وان لم يروه لان الجريمة جريمته ولا موضع للريب . وان لم يكن هو الغريم المجرم فاتهمه على ابنتي لا عليَّ لانها هي التي أجرمته مصرّحةً باسمـه وبمكان الجريمة وزمانها. لكن هل يحلّ لي ان ارشوَ احداً ليشهد بما لم يرَه قط ولا اتصل بعلمه من وجه ؟ هذا ينكره الضمير فان فعلته فقد ابحثُ الكذب والجور وصرتُ آثماً بمن اتيتُ لاشكوهُ بالاثم. اذن سأحمل النفس على الاخذ بجانب اللين فان نبا حدُّهُ وقصرت يدهُ رجعتُ الى الشدَّة وارهفتُ حدّي ولكلّ حادثٍ حديث .

اقبلَ الرئيس على كنعان باشًا به ومبتسمًا له، فرأى في وجهه جهومة واكفهرارًا باديَين. فقال له: ما للصديق الكريم معتبسًا على غير عادته؟ فبرزت من صدر كنعان أنَّة المكروب وقال: لقد عركني الدهر عرك الرحى بثفالها فكيف البس له غير هذا الوجه العبوس. قال الرئيس: غمُّك غمي. اتبالِ رُزئتَ ام بعزيز؟ روحي فداك. قال كنعان: رُزئتُ باغلى من المال وباعزّ من كل عزيز. قال: زدتني قلقًا واغتمامًا. الا بماذا رُزئتَ؟ قال: بما لا يعدله في نظري شيء: بشرفي، بسلام نفسي، بكرامة بيتي، بنقاوة عرضي فماذا بقي لي. فتعاظم قلق الرئيس وقال: لقد اخذتَ تصدّع كبدي اشفاقًا عليك. فما هذا الذي دهاك؟ قال: لا يكن بيننا ثالث. فأُغلق عليهما باب الغرفة فتنهّد كنعان الصعداء. وقال: الفضيحة في بيتي والعار يشملني كالرداء. وقف دولاب آمالي وضاقت بي فسحات الارض. افلا تتنغّصُ لي؟ قال: ممن وفي ايّ جرم؟ — قال: من راهبك المُستهتر وفي اذلالِ ابنتي. فغشّى الكدرُ وجهَ الرئيس. وقال: يا للغرابة. أعلى مثل هذا المنكر يُقدم ناسك من دير قنوبين. وفي بيتك الحصين تكون من ناسكٍ هذه الفعلة الشنعاء! من يصدّق هذا ومن سمع بمثله في هذه البلاد، اين رهبان قنوبين من بيوت الناس فيتَّهموا بمثل هذا العار؟ مَن ذلك الراهب أتعرفه يا كنعان؟ قال: هو مارينوس العاهرُ الخسيس. فاخذت الرئيس قشعريرة وقال: وَي. وَي! تنزهت الفضيلة وترفّع الكمال! ومضى كنعان يقول: هو ذلك المرائي المخبّئ اخبثَ رذيلة تحت اقدس رداء. هو ذلك المتزيي بزيّ ملاك النور وهو شرٌّ من ارواح الظلام. — فوقع هذا الكلام وقع السهم الناري في كبد الرئيس فتنهد وقال: لئن رأيتُ بأمّ العين ذلك الراهب القديس يفعل ما تشكوهُ به لكذّبتُ عيني وقلتُ انه بريء. مَن هذا الوقوحُ الذي لم يتأثم من رشق البراءة بسهم الافتراء؟ — قال ابن الاعتداء وهناك اقرار الفتاة نفسها فريسة شهوته ونذالته. قال الرئيس: بنتك تقول هذا؟ — قال: بنتي نفسها — ربما تكلمت زورًا. قال: لا سخيمة في صدرها منه ولا تأوّ لها عليه ولا عرفته ولا رأت وجهه الّا يوم اتى معك لزيارتي وفوجئنا بسقوط الثلج بغير هوادة فامسكتكما للمبيت في منزلي الى الصباح. قال الرئيس: لا كانت تلك الليلة ولا كان الحاحك علينا بالمبيت في منزلك.

انَّ مارينوس اعفُّ من ان يلوّث عرضه واقدس من ان يخون ربه بارتكاب فاحشة. قال : وبنتي ابعدُ من ان تفتري على راهب بري. بتهمة جريمة فحشاء. قال الرئيس : يقع لبعض النساء ان يتهمنَ بريئاً لاغراض في انفسهنَّ . — قال: يقع ذلك امَّا لاعتيادهنَّ الشرَّ او لمكيدةٍ تُدبَّرُ على ايديهنَّ او طمعاً في اجبار المتهم على التزوج بهنَّ . امَّا فتاتي فليست مظنَّة ولا لواحدٍ من هذه البواعث الثلاثة . — قال الرئيس : ومن النساء من تتهم الرجل تشفّياً كما وقع ليوسف مع امرأة فوطيفار . قال : اعـذراء وفي عروقها اكرم دمٍ وانقاه تجرؤُ على مراودة شاب لم تَرهُ من قبلُ حتى تسلِم شرفها اليه وليس لهـا من رجاء الاقتران به ولا قدر ذرّة ؟ قال الرئيس:أراهبٌ يقيم في الدير عشراً من السنين وعليه من الرقبا. عيون لا تغتمض فلا يرون عنده عيباً ولا ظلَّ عيب وقد بلغ من الحظوة لدى الله ان كرَّمه بصنع الآيات على يدهِ ، ايقدَّر ان هذا الراهب العجائبي يسقط فجأةً من اسمى ذرى القداسة الى احط دركات الرجاسة متمرِّغاً في اخبث حمأة الفحشاء ؟

— كنعان : لوسيفوروس تدهور من اعالي السماوات .

— الرئيس : لا يؤاخذ احدٌ بذنبٍ حتى يُثبت انه فاعله .

— كنعان : ولا يبرأُ مُتهمٌ ما لم تُثبت براءتهُ .

الرئيس : نُحضر مارينوس ونستجوبهُ ، فان اخذناهُ باقراره او بما يؤيد اتهامهُ حملناه على اشدّ العقوبات القانونية والَّا فهو لدى العـدل براء . ونحن في الحالين شركاؤك في الاسف لهذا الحادث المشؤوم . لان بيتك الكبير عضد قويٌّ لديرنا من عهدٍ بعيد . قال كنعان : لا اشك في صدق مودّتك ولسانك. عسى هذا الحادث لا يصير علَّةً لهدم بنا. شُيِّد على اساس الصداقة والمبـدأ والدين . استدعِ الراهب لنسمع ما يقوله في التحقيق معه . فبعث الرئيس من يدعوه ، وانطلق كنعان يقول : آهٍ يا ابانا ما أمرَّ خسارة الكرامة والصيت في نفس الرجل الكريم . لو انَّ النار التهمت بيتي وايدي الجور ضبطت املاكي وبليتُ بما بُلي به ايوب في دهره ولم يلصق بعرضي الدنس لهان عليَّ البلاء. لما بقي لي من حسن السمعة بين الناس . اما وقد رُزئتُ باقدس ما عندي واكرم ما احتفظ به لكرامتي فصار الموت احبَّ اليَّ من الحياة .. فرثى الرئيس لحاله

وعالج ان يهوّن البلاء عليه فقال : لا يعظم الخطبُ في نفسك فانهُ شأن البشر في كل عصرٍ ومصرٍ . وان في المحن لتمحيصاً للفضيلة وفي الصبر لدليلاً على سموّ الهمم وكبر النفوس . وما يُسقط الانسان من كرامته الّا ما اراده من عار وسعى اليه . وانتَ بريء من خطيئة غيرك لدى منبر ضميرك ومنبر ديّان البشر وفي حكم ارباب العقول .

وبينا هما في هذا الشأن حضر مارينوس وقال لبّيك يا ابانا الرئيس ، فسأله الرئيس : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : لا . لاني عاهدتُ عينيّ الّا تنظرا في وجه انسانٍ فانا اعرف النــاس من اصواتهم لاني ابصرهم باذني لا بعينيّ . فحملق فيه كنعان وقال : زهْ زهْ ، من رأى قط مثل هذا الدهاء . اما تعرفني يا مارينوس ؟ فلبث مطرقاً على دأبه واجاب : بلى . من صوتك عرفتك انت كنعان رزق صديق هذا الدير المحسن اليه . قال الرئيس : قلت انك لا تعرف الناس الّا من اصواتهم أفأنتَ تبصرُ باذنك ؟ قال : تقدمتُ فقلتُ اني عاهدتُ عينيّ الّا تنظرا الى وجه انسان . وانا على هذا العهد منذ اتيتُ هذا الدير فهل رآني احدٌ اوجه نظري اليه ؟ قال الرئيس : وضحت حجتك : لا رأيناك مرّةً تنظر الى احدٍ منا ولا عرفنا حتى اليوم لون عينيك ، لانك لم تحدّث احداً الا كنت مطرقاً تنظر الى الارض ، وها انتَ الآن مطرقٌ على عادتــك . فهزّ كنعان رأسه وقال : هوذا جلدُ حمل على جسم سرحال .

وقال الرئيس : هل تذكر ليلةً مبيتنا في منزل الشيخ كنعان ؟ قال : نعم . قال : رأيتُ كنعان وخادمة ونفراً من اهل جيرته ــ قال كنعــان : أرأيت كيف يتحشى الاتيان بذكرِ مَن يهوله ان يذكره ؟ وعــاد الرئيس يستجوب مارينوس قال : ألم يكن ثمَّ احد غير هؤلاء الذين ذكرت ؟ قال : بلى . ابنة كنعان ، قال : لماذا لم تذكرها في مَن ذكرت ؟ قال : توهمت انك لا عنها تسأل لانها ربّة البيتُ فذكرها من قبيــل العبث . ــ قال : ماذا وقع لك في تلك الليلة ؟ قال : ما يقع لي في كل ليلة ، قال الرئيس قل ما وقع لك مما لم يقع لك في غير تلك الليلة ــ لا شيء . الم نكن كلانا معاً في ضيافة صديقك ؟ فما عسى ان يكون الشيء الذي حصل من كرمه غير مــا حصل لك وكنت ترى وتسمع ما اراه انا واسمعه .

قال الرئيس : لا عن هذه الشؤون اسألك . اما وقع لك شيء يشقُّ عليك ان تكشفه ؟ ــ باطني مكشوف لرئيسي كظاهري . ــ اما حدث لك ما يكدّر صفوَ ضميرك ؟ ــ لا عصمة لانسان تحت السماء. لكنني لا اعلم اني اتيتُ امرًا على خلاف إرشاد الضمير . ــ يا ابني ان الجسد ضعيف والانسان هدفٌ للتجارب ما دام في انفهِ نسمة حياة . وعلى قياس ما يرتقي في سلّم الفضائل يتطلّس ابليس لاسقاطه واصطيادهِ ، فان كنتَ قد عثرتَ فلا يعقك الخجل عن الاعتراف بعثرتك . لا تنسَ انك تلقاء ابٍ يحبّك ويرثي لضعفك ويرحمك ــ ففطن مارينوس الى الباعث على هذا الحديث الإظنان به ، فقال في نفسهِ هوذا فرصة سانحة للتشبُّه بيسوع في احتماله العارَ والهوان والسبَّ والشتم واللطم والهزء والتعيير حتى الموت مصلوباً بين لصين ، ومع كونه بريئاً وقادرا على حطم حسَّاده وصالبيه وتبرئة نفسه امام قضاته الظالمين سلّم نفسه الى ايدي قاتليه كخروفٍ تحزُّ عنقه سكين الجزّار وهو لا يفتح فاهُ . اجل ! اني لم اعرف بعد حقيقة التهمة المراد الصاقها بي لكنني ادركتُ انها تهمة بفعل قبيح ، وكونها زورًا وافتراء يزيدني سرورًا بها ليكون صبري عظيماً وأجري أعظمَ عند الحاكم العادل العالم بطويات الصدور . وعقد العزمَ على التسليم الى مشيئة الله والرضا بايّ حكمٍ ظالمٍ يُبرز في حقهِ . وعند ذلك فتح فاهُ واجاب قائلًا : ان كنتُ استحي بخطيئةٍ امام الناس فلأن استحي بها امامَ نفسي وامام الله أولى . لكنني لا املك الّا القول مع النبي : بالاثم صُورتُ في بطن امي . قال الرئيس : هذا كلامٌ لا يفيد اعترافاً بخطيئةٍ معيّنة . ألم تواتيك ولا تجربة في بيت صديقنا كنعان ؟ قال : لا إخالك تسومني الشكاية على نفسي زورًا باثمٍ لا اعرف اسمه ولا جنسه ولا مادته ــ قال : حسبكَ مراوغةً فانك لن تبرّئ نفسك بمثل هذا الكلام . ــ قال : لا مراوغة في نطقي ولا انا محاولٌ تبرئة نفسي من ذنبٍ . العلي متهمٌ بمنكر ؟ قال : باقبح المنكرات . قال : تمجدتَ يا الله . بايّ مُنكر يا ابانا الرئيس . قال الرئيس : تكلم يا كنعان . فوجه كنعان الى مارينوس نظرة حاقدٍ مزدرٍ وقال : ماذا فعلتَ بابنتي يا فاجر يا خالع الحياء ؟ فرفع مارينوس عينيه جهة السماء وبارك الله الذي اهّله لاحتمال هذا الشتم المُهين . ثمَّ قال لكنعان : ماذا فعلتُ ؟ قال : ماذا فعلتُ ! دخلتَ

بيتي فاكرمتُ مثواكَ وأجللتُ ما عليك من ظاهر التزهد ومخافة الله . حسبتك ملاكاً يجلب الينا البركة والسلام ائتمنتك على اثمن واعزّ ما لديّ فكذّبتَ ظني وغدرتَ بي . افترستَ عفاف ابنتي العذرا. وقذفت بي الى اعمق هُوى التحسُّر والشقا . مزّقت عرضي تمزيقاً لا يُرقَع وألبست اسرتي عاراً لا يُمحى . وانتَ على ذلك تحاول ان تحيك ستراً لفضيحتك الشنعا . — فاعتصم مارينوس بالدعة ورباطة الجأش وقال : أتجربني تشاء ام هذا كلام ترسله في سبيل المزاح؟ — فاستشاط كنعان غضباً وقال : ويحكَ يا خبيث ما شأني معك فاجرّبك ، ومتى اسمحتك مزاحاً ، وهل يُمازح في مثل هذه الشؤون ؟

قال : هل اثبتّ الجريمة عليّ وباذا ؟ فدلف كنعان الى الباب ونادى : منصور . منصور . جئ بالولد . فلمّا اتى به . التفتَ كنعان الى مارينوس وقال مشيراً الى الطفل : هاك اثبات جريمتك . هذا الطفل ابن خطيئتك الخسيسة ايوسعكَ الانكارُ بعد هذا الوضوح ، من اين هذا الطفل ولم يدخل بيتي رجل سواك . وباسمك تصرّحُ ابنتي فريسة اغرائك اللئيم ، فلبث مارينوس معتصماً بالصبر لا يبدو عليه شيء من الاضطراب وقال : ان اذن الله بان يلصق بعبده هذا العار فانا اقبله بملء الرضا والسرور .

قال الرئيس لكنعان : قد كنتُ لمتك لخروجك عن حدود اللياقة الذي رميته عن قوس الغضب امّا وقد رأيتَ هذا الطفل فاعذرك واكاد انا نفسي اصير الى ضيق صدر يخرجني عن الوقار ، فلو كانت الفضيحة مستورة لكان الامر اهون علينا وعليك. غير ان جسامة الفعل لا اراها تعزّز اتهام مارينوس بل تضعف البيّنة عليه . لان ماضيه نقي لا يتفق وهذه الفعلة الفحشا . عرفناه يتأثّم من غشيان اصغر الصغائر فكيف نقدّر سقوطهُ فجأة في اكبر الكبائر . ان التهمة لا تزال محفوفة بالغموض . فإمّا ان يؤخذ من اقرار فمه واماً ان يدعم اقرار الفتاة ببيّنة لا تُدفع والّا فانه بريء اقلّه تجاه القضا . قال كنعان : قد يفعل الرجل منكراً على عيون الناس فاذا قيل له اجاب بالانكار فكيف اذا غشيَ المنكر في طيّ الخفا . الا اين نجد شهوداً لفاحشة وقعت في خلوة وتحت ستار الظلام . فما دامت الفتاة مصرّةً على اقرارها لا تنفكّ الجريمة عالقة بالغريم المتّهم . قال : لماذا نصدّق الفتاة المتّهِمة ولا نصدّق الراهب المظنون .

قال : لان عارها واضحٌ وعاره خفيٌّ . فكذبها لا يبرّئها وكذبه قد يبرّئه.
قال : قلتُ انَّ في القضية غموضاً فلا املك قبول التهمة في حقّ راهب يُثنى على تقواهُ وقداسة سيرته بكل لسان . فان شئتَ ان اجمع مشيريَّ وشيوخ الرهبان للنظر في دعواك فعلتُ ــ قال : افعل . فاستدعى الرئيس ستة من النساك الشيوخ وقال لهم : مُنينا يا اخوتي بتجربةٍ صعبةٍ تقصم الضلوع وتستنزل الدموع . هذا صديقنا كنعان الساعة يشكو اخانا مارينوس بفعلة سوء . انتجت هذا الطفل الذي ترونه على ذراعَي منصور .

فصاحوا كلهم بصوتٍ واحد: العياذ بالله ، العياذ بالله ، ان قداسة مارينوس في معصم من التهم ، ليس في نساك هذا الوادي من يغالي في تذليل الجسد وكبح شهواته كهذا الناسك الشاب الذي يحمل الآن عليه اهل الظلمة بأسنّة الافتراء. وقال آخر: لا تُقبل شكوى على راهب ما لم تؤيّدها شهود وبيّنات. قال الرئيس : امَّا الشاكي فالشيخ كنعان واماَّ البيّنة فهذا الطفل وزعم امه الاثيمة وليس على اثم السفاح من شهود . وقال اخر : من طبع المرأة الكذب والافتراء. في مثل هذا الحادث الخسيس، ووجه الى مارينوس هذا السؤال : ابوسعك ان تدفع التهمة وتثبت براءتك ؟ ففكر مارينوس في نفسه وقال في قلبه : ان قلتُ الحقَّ اثبتُّ نقاوة كفي وخسرت اجر صبري على الجور ، وان انكرته كذبتُ فالصمت افضل الخطط الثلاث. سكت هنيهةً ثمَّ قال: ان شاء الله ان يدفعها عني فليس على قدرته عسير . فقال احد المشيرين : جميلٌ بالراهب ان يتوكل على الله ويسلّم اموره اليه كل حين ، لكنَّ موقفك الآن موقف مظنون امام قضاةٍ فان استطعت ان تبرّئَ نفسك فافعل والا قبّحت سمعتك وسقطت من رتبتك ولم نسلم نحن من عارك وان كنا ابرياء . قال مارينوس : اذا كنت بريئاً في عين الله فما ضرني ان اكون آثمَ الخلق في عيون الناس . قال كنعان : ما سمعنا من فمه جواباً الّا وكان مفرغاً في قالب الابهام ، اما كفى بارتباكه وخنوعه البادين حجةً عليه ؟ أجابه الرئيس وقال : من الراسخين في تقوى الله الثابتين في محبته من اذا ناله ظلمٌ لا يحب ان يدفعه وان قادراً على دفعه لان صبره على الاضطهاد يزيد في اجره المنتظر من عدل الله . فاذا سئل في مثل هذا الموقف يجيب بكلام لا يلامسه الكذب ولا

يسطع من خلاله الحق . قال كنعان : الفعل مفعولٌ والمرأة تعيّن الفاعل باسمه وهذا يلفُّ اقراره بالغموض وانا ما يجديني هذا الاستقصا. بعد ان تمزق عرضي وامسيت معرّة بين الناس . ولو شئتُ انتقاماً لرفعت شكواي الى القضا. المدني واستصدرت الحكمَ الذي أشا. . لكنّ العفو عند القدرة اجمل خلق في الرجل ، فها انا احمّلكم عبء هذا الطفل الذي لم يسع امّه ان تعطف عليه امّا ابنتي فتؤدّب وتتوب ، غفرت لراهبكم مجرماً او بريئاً فتدبّروا امره على ما ترون. والتفت الى خادمه منصور وقال : ألقِ هذا الطفل عن ذراعك واتبعني ففعل وانطلقا .

حينئذٍ خاطب الرئيس مشيريه قائلاً لهم : كلّكم آسفون لنزول هـذه الكارثة بصديقنا كنعان ، ومع انها قد حطته حطماً كصاعقة انقضت عليه ابت مروءته الّا ان يرعى عهدنا فلم يشأ ان يشهّر راهباً برفع شكواه الى القضا. المدني رعياً لحرمة الديانة وصوناً لسمعة الرهبان . فقال احدهم : اجل لقد تصدعت اكبادنا اسفاً ، ولكن ما فائدة الاسف . قال الرئيس : مـا نصنع وقد نفذ المقدور . ما رأيكم في مارينوس أيستوجب تأديباً وفي هذا الطفل من نقيم عليه ؟ قال مشير: ينبغي ان يُقطع العضو الفاسد حرصاً على الجسم من تسرب الفساد اليه. فان لم يعاقب المجرم اعتزت الرذيلة وذلّت الفضيلة واستفحلت الشهوات . ـــ وقال آخر : لا نعاقب اخانا اخذاً بقول بنتٍ خاطئة . وقال آخر : فليُسأل مارينوس مرةً اخيرةً فنرى ما يترتب على جوابه من تبرئة او قصاص. فتكلم الرئيس الى مارينوس قـال : إنّ ماضيك يشفع بحاضرك فان كنت مذنباً فاعترف بذنبك والله غافر للتائبين ، وان كنت بريئاً فـاعلن ببراءتك لتدبّر امرك على نور الحق ولا نحمل وزرك بايجاب قصاص عليك. قال مارينوس : خطاياي اكثر عدداً من شعر رأسي. قال : اذن انت معترفٌ بخطيئتك. ـــ قال : الله ادرى بمكنونات الصدور واعلم بمسالك الانسان . ـــ قال : اوَ تقبل مايوجب عليك من كفارة قاسية ؟ قال: بكل ارتياح، فانه لا يحسن بنا ان نقبل عطايا الله ونتذمر من بلاياه يوم الافتقاد . وبعد ان تفاوضوا طويلاً في شأنه قال مشير : لقد بدا اعترافه بذنبه فلا يحسن بنا ان نخليه يساكننا في ديرنا وقد صار كحجر عثار وصخرة شك . فتصدى له مشيرٌ آخر وقال : ان الله يريد رحمةً لا ذبيحةً،

الطوبى للرحماء فانهم يُرحمون ثمّ فوّض الامر الى رأي الرئيس . فقال : ان الرحمة لا تنافي العدل وقال لمارينوس : يا ابني لم تستطع او لم تشأ ان تبرّئ نفسك فانا أخذًا بمشورة هذا المجمع وجريًا على تقاليد آبائنا القديسين اقضي عليك بقدّ ثوبك الرهباني وقطعك عن شركة الرهبان . ودنا ليقدّ ثوبه فجثا على ركبتيه ضارعًا باكيًا واخذ يقول : بعيشك يا ابي ، بحبة يسوع المسيح لا تنزعنّ عني هذا الثوب المقدس الذي اشتريته بثمنٍ غالٍ ، خذوني حيًا الى القبر مكفّنًا بهذا الثوب الذي بعت كل شيء واشتريته لالبسه بفخرٍ في الدير والقبر . اشفعوا فيَّ يا آبائي واخوتي واجبروا قلبي الكسير ، يا دموعي اغسلي هذه الارض التي ربما نجّستها بخطاياي ، فرثى له جميعهم وطلبوا الى الرئيس ان يبدل قصاصه بقصاصٍ اخفّ . فقال لمارينوس : لا ننزع عنك الثوب بل تُخرَج من الدير معزولًا عن الاخوة في منارة وتربّي هذا الطفل مقيمًا معك الى ان يبلغ السنّ السادسة وبعد ذلك يُنظر في امره ويُؤذن لك بسكنى الدير ان اردتَ ، فهل تقبل هذا القصاص . فسرّي عن صدر مارينوس بعض غمه . واجاب : طوعًا يا أبي وسأزيد عليه بنعمة الله وأيده العاوي . — قال : فاحمل ابن خطيئتك واخرج الى كيف تختاره ونحن نحمل اليك القوت ونسأل الله ان يتقبل توبتك ، فأخذ مارينوس الطفل على ذراعه وقال : شكرًا لك يا الله على كثرة رحمتك اليَّ ، صفحًا ايها الآباء ، وداعًا ايها الدير المبارك المحبوب . هيهات ان اعود حيًا اليك ، وانطلق لسبيله مطرقًا متلفعًا بثوب الذلة والهوان ، مكتئب الوجه متهلّل الفؤاد .

ساق مارينوس ملاكُ الرب الى كهفٍ على مسافة ميلين من الدير في بقعة صخرية تتجافى عنها الاقدام لوعورة مسالكها . مكث في هذا المسكن الجديد ستة اعوام لا يرى وجه انسان غير الطفل الذي أُجبر على تربيته . ولا يخرج من كهفه الّا ليجمع قوته من نبات الارض وحطبًا للاصطلاء . بناره في صبّارة الشتاء . وكان في بادئ الامر يُحمل اليه الغذاء من الدير اسبوعًا بعد اسبوع فرأى ان التغذي بعشب البرية ابلغ في قهر الجسد فسأل ان يقطع عنه طعام الدير لكرهه ان يأكل من تعب غيره مع قدرته على تحصيل قوته بكدّ يديه فأجيب ملتمسه ، وكان يذوق في خلوته لذة روحية يعجز عن وصفها اللسان ،

ولم يكن لصلاته انقطاع ومتى اغرق في التأمل يحصل له انجذاب وغيب عن الحواس فيذوق وهو على الارض ما يذوقه من اللذات العلى اهل السماء ، لا انيس له ولا جليس في مغارته الخالية من كل اثاث وماعون الّا ذلك الطفل الملاك ، فكان لا يترك الصلاة الّا مضطرًا للاعتناء بشؤونه ، وكان انه وهو يلاعبه عشية يوم رأى النعاس يكحل اجفانه بالذبول فاخذه الى فراشه وجلس الى جانب [illegible] متمططاً في كلامه بصوت رخيم يلقي في السمع مخدّرًا من رقة القلب واحد [illegible] : نَمْ ايها الملاك الصغير . نَمْ على هذا الفراش الذي هيأته لك يدي من نبات الار[illegible] الجميع ، انتَ كعصفور تخلّى عنه ابواه فسخّرت له العناية الربانية حاضناً تقوم عليـ . . . [illegible] نَمْ . استرح وانمَ وتمتع بما لذّ من الاحلام . فلتلاعبك الارواح الصالحة متراثية لك في مثل سنك الرطبة وجسمك الصغير . لا تلتمس قوتك بالبكا . ولا يكن شرابك من مدمعك ، فان الذي يقوت صغار الغربان المهملة قد نظر في حاجتك الى القوت فأخرج لك لبناً من تدّيي بمعجزة فريدة كما اخرج الماء من صخرة صمّاء لشعبه اسرائيل . ثم تأمل في عيني الطفل وقال : قد استغرق في النوم فلنسمن في الصلاة . وجثا على ركبتيه ورفع الى الله هذا الدعاء :

اللهمَّ يا باسط الارض ورافع القبة الزرقاء ، اني اشكر لعنايتك التي غمرت جميع ايام حياتي بالحسنات ، حلّت من وثاق الدنيا يديَّ . وسهّلت طريق البرّ لقدميَّ وارشدتني الى مواطن محبتك وخدمتك وحبّبت اليَّ الزهد والعفاف . واختطفتني من ايدي الغنى والجاه الباطل العالميّ . وساقتني الى خلوة التأمل والصلاة . ثم حسن في عينيك يا كريم فاعلنت قدرتك بضعفي وحقارتي فنلت بها كرامة ومكانة في القلوب . صنعتَ على يدي آيات شفاء واريتني خبايا الصدور . ولكي لا اذهب مع الخيلاء . وتزل بي القدم على مزالق الافتخار امرتَ فوانبتني الرزايا واحاط بي لهيب الامتحان لكنك لم تبلني بما يفوق الطاقة بل رحمتني فجعلت لي من كل تجربة مخرجاً امينًا ، ولما نُفيت الى هذا الكهف وجدَّ عليَّ ضغط الوحشة اسقطت ندى تعزياتك على نفسي الجافة فانتعش عندي الرجا . وتحوّلت الوحشة الى انس . والمرارة الى حلاوة ، وكان يمضّني ان يموت هذا الطفل من سوء الكسوة والغذاء . فاعطيتَ صدري لبناً لقوته وسخّرت بسائر

حاجاته وحوش الغاب وطير السما . وها قد ادرك الربيع السادس وهو على امتلاء عافية واطراد نموّ في الجسد والروح ، وقد عرّفته اسمك القدوس وغرست في نفسه اللينة مبادئ ديانتك الطاهرة ودربّت اوائل خطواته في سبيل وصاياك واترجا انه بنعمتك سيكبر على محبتك وينتهي الى نعيمك الابدي. اعطيتني كل هذه النعم السنية هبةً من لدن كرمك بدون سؤالٍ ولا استيهال . افتأذن لي ان اسألك اليوم واحدة تشتهيها نفسي . اني في ظمإ الى مشاهدة عرش مجدك يا سعادة القديسين ، فقتصر ايام غربتي فقد اجتزت الشوط واشتدّ حنيني الى الوطن ، فاستجب لي يا رب ولينفذ دعائي الى مسمع رحمتك يا رحيم .

وبينا هو يناجي الله وعقله مرتفع الى السما. اذا قادم وقف في مدخل المغارة وقال: سلامٌ ايها الناسك الجليل. فاجفل مارينوس والتفت جهة الصوت واجاب: سلامٌ يا اخي . ولم ينظر في وجهه وسأله مَن تكون وما بغيتك ؟ قال : انا حرمون بن ملكون من قرية في البقاع الشرقي ، سئمت الزراعة مهنة ابي وشققت عصا الطاعة وخلستُ من ماله ما وصلت اليه يدي وهمتُ على وجهي في بلاد الله تتقاذفني الاماكن لا استقرّ في مكان ، ولي قصة مؤلمة اتيتُ لاقصها عليك . قال مارينوس : لا شأن لي في قصص الناس وقد آليتُ الّا احدث انساناً الّا لضرورة ماسّة . قال حرمون : لا أثقلك بحديث طويل وما باعثي على تحديثك الّا نخس ضمير ينغّص عيشي ويُقصي عن نفسي السكينة والسلام . قال مارينوس : أنفس كربك ان استطعتُ . فتكلم ، قال : اسأت اليك لان لي يدًا في ما نالك من هوانٍ وضنك . قال : وكيف كان ذلك ؟ — قال : خطيئتي عظيمة الى الله واليك ، انا فاعل الفاحشة التي وُجهت زورًا اليك . نفد ما كان معي من مال ابي فمضيتُ اطلب عملًا فاستأجرني كنعان الذي تعرفه لاعمل في بستانٍ له في طرابلس واسكنني في بيت قائم في البستان ، واعجبه ما رأى من امانتي ونشاطي ومهارتي في تربية الشجر فرتّب لي اجرةً ذات بال واكرمني بالمنح فاصبحت موضع ثقته وبمنزلة واحدٍ من بيته . وكان اذ يجيء الى البستان ترويحًا للقلب تصحبه ابنته اسما. وهي صبيّة ذات وجهٍ بشوش وثغرٍ باسم وجمال رائع، فيأنسان بي ويجلساني ويسمعان حديثي بارتياح. وصارت اسماء تجيء وحدها احياناً فنتحدّث كاخوين . فاستمكنت بيننا

المودّة وتحوّلت الى رغبة في اتحادٍ حلٍّ بعقدٍ لا يحلّه غير الموت. لكننا استوعرنا المسالك لما بيننا من تفاوتٍ في المحتد والثراء. واستعسرت ان تفتح قلبها على ابيها وكذلك انا بالاحرى. وقامَ في وهمنا ان الطريق الغير المشروع فبلغتنا الى الغرض المشروع، وكانت ساعة شؤم تتالت بعدها الغموم وتراكمت الهموم وبلغ مني الخوف مبلغه من قايين وقدمتُ الفرار على الانتحار. فشقَّ عليها فراقي وقالت: لا تخف ضرًّا فاني واجدةٌ لك مخرجًا يباعد عنك كلَّ خطر. سأتهم الراهب مارينوس الذي بات ليلةً عندنا وتسلم انتَ من كل ظن. فاظهرتُ لها الرضا، وما لبثتُ ان انطلقتُ خفيةً الى حيث لا تراني عينٌ ابصرتني من قبلُ.

تجوّلتُ مدى اربع سنين والخوفُ يتبعني اخــاف حتى من حفيف الشجر وهبّ النسيم، ثمَّ خطر لي ان اجتاز بالمدينة لاتنسّم الاخبار واعلمَ ايَّ اثرٍ كان ثمَّ لفظاعة ما فعلت، فتلطفت في الاستقصاء. فعلمتُ ان كنعان قد باع كل ما يملكه وانفق الثمن في وجوه البرّ واعطى بنته نصيباً وارسلهـا الى دير تمارس فيه التوبة وتوارى هو عن الانظار فلا يُعرف اين يكون. وكانت ابنته قد اتهمتك لتحوّل الذنب عني اليك. فاسألك بمحبة المخلص يسوع ان تغفر لي انا الجاني عليك، وقد عقدتُ القلب على التنسُّك في هذا الوادي المقدس تكفيرًا عن اثمي الشنيع، واحبُّ ان يكون جثوي تحت قدميك مبتدأ حياتي الجديدة فتكون مغفرتك فاتحة سعادتي كما كانت خطيئتي فاتحة شقائك.

فاجابه مارينوس وقال: لا سيئة لك عندي ولا في قلب المسيحي موضع للحقد. امضِ في عزمك الصالح واطلب الحلَّ من اثمك في منبر التوبة باعترافٍ وندامةٍ صادقين، وانا اسأل اللهَ ان يغفر لك ويثبّتك في محبته الى المنتهى.

قال حرمون: امين. وسوف اخفّف عنك من عبء هذا الصبي الذي اخجل اليوم ان اراه. باركني فاذهب باطمئنانِ قلبٍ وسلام. فباركه باسم الرب محب التائبين واستحلفه الّا يعلم احدًا بمكان عزلته ولا بما دار بينهما من حديث. فقال حرمون: لك ما أردت وانطلق لسبيله.

٥

استيقظ الولد من رقاده وقال: أمي انا جائعٌ هل عندكِ ما آكله؟ قال مارينوس. هلمَّ اولًا أُقبّلكَ فدنا منه وتلاثما وكان الرب يسخّر غرابًا يحمل

اليها كلَّ يوم رغيفين ، فاطلَّ مارينوس من البـاب فوجد الرغيفين في موضعها المألوف وكان قد جمع رزمةً من عشبٍ تعوَّد أكـله فصلّيا وجلسا يأكلان ثمَّ صلّيا صلاة الشكر بعد الاكل ، وانهما لكذلك اذ سمعا صوت قـادم يقول : الشكر لك يا الله لانك هديتني الى ضالتي المنشودة بجهدٍ عظيم . فساء مارينوس ان يكشف الستر عن عزلته المحبوبة وقال بصوتٍ خفيض : خُرقت خلوتنا فينبغي ان ننتقل الى غير هذا الكهف . وناداه صاحبُ الصوت ملقيًا عليه تحيَّة الرهبان « المجد لله » . التفت مارينوس اليه فرأى عليه ملابس النسَّاك فاجابه : « المجدُ لله دائمًا » وقال في نفسه : كأني اعرف هذا الصوت . ما اشبهه بصوت كنعان . وجعل نظرهُ الى الارض وقال للرجل : مَن انتَ وكيف اهتـديتَ الى هذا المكان ؟ — قال : ألم تعرفني يا مارينوس أإلى اليوم لا تنظرُ في وجهِ احد . انا كنعان الذي نالك منه الظلم على برائتك ونقاوة يديك . ويحًا لابنتي الماكرة فقد اركبتني في حقك مراكب التهوُّر والضلالة والانهيار . ففكَّر مارينوس متسائلًا أتراه قد اهتدى ايضًا الى مفتاح سرّي : ثم قال لكنعان بل غفر الله لابنتك فما كانت الّا اداة في يد العناية الالهية التي تسوق كلَّ شيء الى نفع عبيدها المختارين .

فما هذه الملابس التي اراها عليك ؟ قال : ملابس امرىءٍ خبر الدنيـا فازدراها واعرض عنها وهام في القفار يلتمس رضا المولى الكريم . لباسه الوبر ووساده الحجر وفراشه التراب وغطاؤه لحاف الهواء .

قال مارينوس : ما جعلك تكبد نفسك صرامة هـذا العيش الذي ندر الزحام عليه ؟ قال : خطيئة ابنتي التي وقع شرُّها ظلمًا عليك . — افأنت على على يقينٍ من براءتي ؟ قال : كلَّ اليقين — قال : من اين لك هذا اليقين ؟ قال : من فم ابنتي باقرار صريح . قال : ما هو اقرارها ؟ قال : ان مارينوس راهبٌ على حسب قلب الله ، ان هو الّا ملاك في جسم بشري ، ومبلغه من التصوُّن انه لا ينظر البتة في وجه انسان . ولا يفتح اذنه لصوت اغراء . وقالت ان شريكها في الاثم تعاف التلفظ باسمه لما بينها وبينه من التفاوت تربيةً ومولدًا وكرامةً — قال مارينوس : ما حملها على هذا الاقرار الذي وددتُ لو انه ما حصل ؟ قال كنعان : مهازُ الضمير نغَّص عليها العيش وذكَّرها بالواجب والثواب

والعقاب . رأت في بادئ الامر ان اتهامك اقرب الى التصديق من اتهام شريكها الدني، وساءها منك ترفعٌ كان حقه ان يسرها لو فطنت فكان انها اتهمتك تشفيًا منك وسترًا لصاحب الجريمة الخسيس، فلما لجأت الى الدير ورسخت قدمها في التوبة وسلّط الله عليها بلاء، قاصمًا رجعت الى نفسها واستفحشت إقدامها على اتهام البري. فاستدعتني واعترفت لي بحقيقة الواقع فاتضحت براءتك ووجب عليّ الاعلان بها لدى رهبان ديرك، لتردّ عليك كرامتك ويعظم فضلك وتبرز من غلاف الظنون اشعة ... وتزاهتك ويذهب صبرك مذهب المثل تتحدث به الاجيال . وها انا اسألك الصفح عن تسرعي في الشكاية منك وتسببي لك ما قاسيته من ذلّ وعار وهوان . قال مارينوس: انا الذي اخترتُ لنفسي هذا الحظ، ولي به فرحٌ عظيمٌ ونعيم . هل أطلعتَ على حقيقة الحادث احدًا من الرهبان ؟ قال : اردتُ ان أحدّث الرئيس فابى ان يسمع لي وقال : ليس مارينوس فينا فلا نحب ان يؤتى على ذكره بخير او شر . فطابت نفس مارينوس وقال : نِعمَ الجواب ! فما حال بنتك أليوم ؟ قال: هي راهبة احتلّت مخافة الرب قلبها فاصبحت تتحلّى بذكر فضائلها الافواه . قال مارينوس : فليؤتها الرب الثبات الى المنتهى ويجعلها بثواب التائبات في السماء . وانت يا كنعان لا يغمّك شأن التهمة التي رموني بها عن قوس الافتراء . فانها قد عززت صبري وعظّمت أجري، ولعلها في حكمة الله ضمانة لخلاصي وخلاص بنتك وخلاصك انت ايضًا بما صرتَ اليه من تغيّر النظر في بهرج الحياة . فاعكف على خدمة الله بالطريقة التي تحرّيت وكن من جهتي خالي البال مرتاح الضمير . فاني غافرٌ لك ولابنتك من كل القلب بل اعدُّ نفسي مدينًا لكما واسأل الله ان يجزيكما خيرًا لقاء احسانكما اليّ . قال كنعان : سبحان الله الذي غرس في نفسك البارّة كل هذه الاخلاق الكريمة والفضائل الباهرة . أمّا تأذن لي بان آخذ هذا الولد اليّ فأتولى عن عاتقك اعباء تربيته ؟ فوثب الولد الى مارينوس وطوّقه بذراعيه وقال لكنعان : لا . لا . انا لا اذهب معك . فقال مارينوس : لو شاء الله ان يقيم غيري على هذا الطفل البري. لما قيّض وصوله اليّ . انه لفخري لدى الله كما انه لخزيي في عيون الناس . قال كنعان : لنا مقيمٌ في مغارة على مسيرة ساعة من هنا. فان حسُنَ في عينيك ان نتلاقى احيانًا

فانا عند ما تحبُّ . فاجاب مارينوس وقال : شمسي على وشك المغيب . فالى الملتقى في الوطن السعيد . قال كنعان : وقيتَ الملل ولا عجل اليك الاجل . حسبنا ان نكون واحدًا في محبة المسيح . وودَّعه راجعًا الى مكان نسكه . حينئذٍ خاطب الولدُ مارينوس قال : أمي : هذا انسانٌ مثلنا ، اهوَ من الناس الذين قلتِ لي ان الله برأهم ليحبوه ? قال : نعم يا ابني . والناس كثيرون كنجوم السما . قال : اين يوجدون . ــ على سطح المعمور . — لماذا لا اراهم أجمين ? لانك في بقعةٍ من الارض صغيرة جدًا ، ولا ساكن فيها سوانا . ــ لماذا لا نجيء الى مغاورهم فنراهم ? —لانَّ الله يريد ان نمكث في مغارتنا ولا نخالط غيرنا . ــ وهم لماذا لا يأتون الينا ? ــ لانهم لا يعرفون الطريق . ــ انا ادلهم على الطريق . ــ وانتَ مَن يدلك على طريقهم ? ــ انت . ــ انا احبُّ ان امكث هنا مع الله ومعكِ . — انا كذلك احبُّ ان امكث مع الله ومعكِ . ــ قالت : اخرج الآن واجمع رزمة من الزهر من كل صنف ولون نقدّمها لامنا العذراء . قال : ساجمع اجمل الازهار لونًا واطيبها ريحًا لاني احب كثيرًا امنا العذراء . وما هي الا هنيهة حتى عاد يركض مذعورًا وقال : أمي ! أمي . اناسٌ مثلنا – قال مارينوس : لا تخفْ . وارسل نظرهُ من الباب فابصر الآتين فارتدَّ على اثرهِ وقبع في اقصى مغارتهِ وهو يقول : ما شأن هؤلاء معنا ?

وقف امام المغارة ثلاثة رجال تقدَّم احدهم الى الباب وسرَّح نظره في الداخل فرأى مارينوس والولد فلم يتميزهما لضآلة النور فظنَّهما خيالين فارتعب وقال : ابشرٌ هنا ام جنٌّ ? ونادا‌هُ احد الرجلين الاخرَين : ان انظر يا قاسمُ لعلَّ الغزال قد لجأ الى هذا الكهف . فاجاب قاسمُ وقال : لا اثر هنا للغزال انما هنا ما ينفرُ الغزلان . هلمَّ انظر بعينك يا اميرُ ، فتقدم الامير حمدان فلم يرَ الّا مارينوس والغلام ، فصاح في مارينوس وقال : مَن انتَ يا رجل ? قال : انا ناسكٌ منقطعٌ لعبادة الله في هذا القفر . قال الامير حمدان : بل انتَ كافرٌ تعبد الشيطان عدوَّ الله . ــ قال : بل انا مؤمنٌ على دين المسيح . قال الامير : والله والنبي حبيب الله لئن عدتَ فقلتَ انك مؤمنٌ لاضربنَّ عنقك بهذا الحسام .

قال : عنقي لله فان أذن لك ان تضربه فافعل فان حياتي له وفي يده لا لي .
قال : ما جرّأك على الاقامة في ارضي ألم يبلغك ان هذه الارض ملكٌ للامير حمدان ، لقد نجّستَ ارضي ونفّرتَ غزلاني من امامي وحرمتني افراح قنصي ، فوالله لئن ضاع الغزال الذي رميته لانشبنّ نبالي في صدرك وصدر هذا الغلام ، فاستولى الخوف على الولد واختبأ وراء مارينوس وهو يشهق في البكا . وخاطب مارينوس الاميرَ حمدان يستميل عطفه قال : رفقاً يا سيدي الامير . كيف يكون اني انفّر طرائدك من امام وجهك وانا لا اتخطى باب هذه المغارة خطوةً الى الامام . ان كنتَ لا ترحمني فارحم هذا الولد الذي ما فعل خطيئةً تستوجب الموت برشق النبال ـ قال حمدان : أأرحمك وانتَ تزدريني ، ما بالك مطرقاً أتراني أحقرَ من ان تنظر اليَّ . قال مارينوس : معاذ الله ان ازدري بمخلوق على صورة الله ، فان اطرقتُ فلأني لا استحق ان انظر اليك . فهزّ حمدان رأسه وقال : عذرٌ جميل لو صدق . وكان الامير قد أرسل حمَدًا احد رفيقيه في طلب الغزال الجريح بين الادغال فاقبل بالخيبة والفشل وقال : يا سيدي فُقد الغزال ، فتأفف الاميرُ وقال : هذا يوم بؤس ونحس . ذهبت اتعابنا ادراج الرياح ، غزالٌ واحدٌ عرض لنا رمينا جرحنا فلم نُصم . حملَ ونجا . أفنعودُ الى دارنا خائبين . كل هذا الشؤم من هذا الناسك المشئوم . وصبَّ سخطه على مارينوس سبًّا وشتماً : ويكَ يا بليدُ يا خبيثُ يا مرياء ما كفاك ان تكفر بالله مشركاً به حتى تتهرب من العمل المفروض على كل ذي بشر وتتربع في دست البطالة نائمًا على زند الونى طول ايام عمرك في مسارح الوحوش ، كأنك لا تدري اني جعلتُ هذه البريّة حرَمًا لتنمية الطرائد فاقتحمت حرمي ونجّسته وعبثتَ بسلطاني وعزّي واقتداري . فلاقتلنّ من وقاحتك واضربنّ عنقك واستل سيفه منضياً ليضرب . فجثا رفيقاه قاسم وحمد لدى قدميه يشفعان اليه في مارينوس قائلين : بالله ورسوله المعظّم وتربة ابيك الّا وهبتهُ لنا . فهمد فائرهُ وقال لهما : غلبتُما سخطي بالحلف العظيم ، وهبتهُ لكما على شرط ان يبرح هذه الارض ولا يعود اليها . فان جئتُ في العام المقبل والفيتهُ هنا قدمه حلالٌ اروي به تربة هذا الحرَم . فقال مارينوس : يا سيدي ليست حياتي بكريمة عليَّ لاني تائقٌ الى حياة افضل لا تنقضي ، ولي ملءُ الثقة بالله انه يتوفاني عمّا قليل فيكون

انك تعود فلا تجدني . فقال: عفوتُ عنك على الشرط الذي ألزمتُك ، لن ارجع بعفوي فتدبّر . ثم انهُ مضى بن معه في طلب ما يصيدون .

٥

جلس مارينوس والغلام يتحدثان فقال مارينوس : بُنيَّ لماذا خفتَ هؤلاء الناس وقد علّمتُك انه لا ينبغي ان تخافَ الّا الخطيئة لانها تقصينا عن الله ، فاذا حفظنا وصاياهُ ولم نخطأ اليه نكون معه وهو يكون معنا نحبُّه ويحبُّنا ويحيطنا باسوار حمايتهِ فلا يصل الينا اذًى ولا يواجهنا خطر .

وفيما هما في هذا الحديث اذا الرجال الثلاثة عائدون اليها وللامير حمدان أنينُ تألمٍ يُسمع من بعيد ، ودنا قاسم من مارينوس وقال : يا رجل الله زلّت بامبرنا قدمه فزاغ عظم وركهِ عن موضعه فأُغمي عليهِ من شدَّة الالم فلمّا عاد وعيه قال : بعدلٍ جوزيتُ لاني خاشنتُ ذلك الناسك واوسعته شتماً وتهديدًا وهو يلاينني صابرًا على خشونتي ، احملوني اليه لاسأله الصفح فلعلَّ الله يشفيني بدعائه ولا يعاقبني باشدّ من هذا البلاء ، فاتيناك نطلب صفحك عنه ونلتمس دعاءك له بالشفاء . فانَّ الله يَسمع لك لانك من اوليائه الصالحين . فهلّا تقبل شفاعتنا فيه وقد اتاك نادماً على ما فعل ؟ وكلّمه الامير حمدان خاشعاً وقال : ان رفعتَ ألمي وهبتك هذه الحقول كلّها ملكاً لك لا منازع لك فيه وحملتُ اليك من المال والتحف ما يجعل مغارتك قصرًا تتوفر لك فيه كلُّ اسباب الراحة والرفاه . — قال مارينوس : بقوَّة الله لا بقوَّة حقارتي تنال الملتمس . امّا حقولك ومالك وتحفك فلا شأن لي فيها لان كنوز الارض باسرها احقر في نظري من حفنةٍ من تراب .

قال حمد : اشفِ امبرنا يا رجل الله واغنم شكرنا والاجر من ربك محب المحسنين . قال مارينوس : ليأتهِ الشفاء من لدن الرب المتحنّن القدير . وبسط ذراعيه ورفع عينيه الى السماء ولفظ هذا الدعاء : ايها الآب السماوي الذي لا قياس لجودهِ ومراحمه لا تُحدّ مجّد ابنك يسوع المسيح ليعلم الكل انه ابنك الحبيب الذي ارسلته لخلاص الجميع . وقال لحمدان : فلتعُد جنبك صحيحة وليضمحل الملك بقوة الرب يسوع المسيح . إمشِ على قدميك . فنهض لساعته ووثب ومشي مستقيماً وصاح وقد شمله للفرح واخذه العجب : ما هذه القوة التي

يمنحها الله لمحبيه . حقًّا انك رجلٌ قديس. بكلمةٍ رددتَ عظمي الزائغ الى موضعهِ وأقصيتَ عني ألمي المميت فبأذا اجزيك في هـذا الاحسان العظيم ؟ قال : لا بقوّتي شفيتَ بل بقوّة يسوع المسيح فـاياه تشكر على احسانه اليك . قال حمدان : لك الشكر يا يسوع المسيح . وجثا لدى الناسك وقال : باركني يا رجل الله وانا واعدك بان احمي حقوق المسيحيين بكل ما لي من سلطة ونفوذ ، فباركه مارينوس قال : بركة الربّ تشملك ورفيقـيـك وذويكم وتفيض عليكم خيرات الارض ومـا ينفعكم من خيور السماء . فودّعوهُ وانصرفوا تاركين اكياسهم والسلاح وفي نفوسهم الاعظام لقدرة يسوع المسيح والاذعان بصحة الدين الذي اشاعه في المعمور بقوّة الكلمة والآيات .

ﻫ

فوجئ مارينوس بموجة برد في بدنه ودوران في رأسه واسترخاء في ركبتيه وانكماش في قلبه . فتلقّى ذلك بالفرح والشكر لله وجلس في فراشه يتمنى على الله ان يجعل يومه هذا الاخير من ايام غربته والاول من ابديّة وطنه السعيد والمحبوب الذي طالما ارسل حنينه اليه على اجنحة صلواته الحارة المحلّقة في اجواء المحبة والرجاء صعوداً الى امام العرش الجالس عليه الحمل محمولاً على اكف القديسين الابكار يُسبح له كل من في السماء بهتاف الفرح : قدوس. قدوس. قدوس .

جسَّ مارينوس نبضه وعدَّ من واحدٍ الى ثلاثين فوجده بطيئاً متقطعاً فطابت نفسه وقال : لقد دنت ساعة الفرج ساعة الانطلاق من حبس هـذا الجسد الكثيف . ما اسعدها ساعة ! ايها الموت المشتهى أسرع واكسر هذه الاغلال التي تمسكني في منفاي ، إحسر اللثام عن وجهك المحبوب ، فانت اجمـل في نظري من الفجر البارز من غلاف الظلام ، عجباً . ها انَّ الروح تنسلُّ من الجسد وهو بنجوة من الألم . فاين غُصصك واين غمراتك يا موت ؟ ألم يا ربّ هذا الجسد فاني لا استحق ان أنتقل الى لذّات نعيمك بلا وجع . وقـال للغلام : هات يا بُنيَّ هذه المحبرة فاكتب كلمةً قبل الوفاة . فاتاه بها وبقصبة مروّسة ، وقال : أمي . هل تموتين ؟ كيف تموتين . علّميني كيف اموتَ لنموتَ كلانا معاً . قال : ادنُ مني فاقبّلك ، فدنا فقبّلـه وضمّه الى صدره وكلّمه بصوت

يرنمه الحنو والأسى : انت لا تموتُ اليوم وسوف يعلمك كيف تموت يسوع المسيح . ومتى كبرتَ تصير خادماً لمذابحه تلبس حلةً جميلةً وتقرب لابينا الذي في السماوات ذبيحة ابنه يسوع . فكلما قربتَ تلك الذبيحة المقدسة التمس من الرب راحةً وسلاماً لروح امك التي ربّتك وغرست في نفسك محبته ودرّبتك في رعاية وصاياه . حينئذٍ قبض مارينوس القصبة وكتب على رقٍ وطوى الرق والقاه الى جانبه واحسّ بدنوّ الاحتضار . دبّ البردُ في قدميه واخذ يتغلغل في بدنه . قال : هوذا الروحُ تنسلُّ على مهلٍ ، ووضع يده على قلبه فقال : والقلب قد ناهز التلف ، وجسَّ نبضه . فرأى انه على شفير التواري فقال : هوذا الدقيقة المشتهاة . وتناول صليباً من خشب الارز كان معلقاً بعنقه فقبّله مرات والقاه على صدره وضمّ جنبيه واسند ظهرهُ ورأسه الى وسادته الحجرية وجعل يناجي المسيح الذي شغف بحبه وحده طول ايام الحياة . قال : يا سيدي يسوع المسيح يا حبيب نفسي المنتقى من بين الوف . ما اجمل هذا الاكليل الذي في يدك يا مخلّص العالم وديّان الانام. ألامتك الوضيعة هذا الاكليل ، اذا استحقته يا الهي السخيّ ؟ ما ابهى هذه العذراء الملتحفة بالجلالة والضياء ! ما ابدع هذا الموكب المحيط بالملك الازلي . طوبى لكِ يا نفسي فقد فزتِ بازيدَ مما ترجيتِ واشتهيتِ . فاخرجي من عالم الظلمة الى عالم النور بسلام . يا يسوع ومريم ويوسف المعظّمين الى ايديكم الحنونة ألقي نفسي المسكينة بكل ركون . وفتح فاهُ ثلاثاً واسلم الروح .

ورأى الولد ان امّه قد سكتت فنادى : أمي ! أمي لماذا سكتِّ ؟ وهزّها من كتفها فوجدها هادئة فظنّها نائمة وجسّ يدها فاذا هي باردة فغطّاها خوفاً عليها من اذى البرد وقال ادفأي يا أمي ، ونامي بهدوء وراحة وهناء .

التفّ على المغارة غمام من بخور حمل الهواء عرفه الذكي عابقاً بالوادي كأنّ كل ما هنالك تحوّل الى طيب . واعطت الاجراس طنيناً مفرحاً مصحوباً بطربات الانغام . فدُهش الرهبان مما جرى وجعلوا يتساءلون ما هذا العجب ! أجراسٌ تطنّ ولا قارع ولا موعد ولا ميقات ! ما هذه الانغام المطربة يحملها الينا الهواء مضمخةً اذيالهُ بالطيب ! ومضوا جهة مهبّ النسيم فانتهوا الى مغارة مارينوس ، فلما رآهم الولد هرب من وجوههم الى اقصى المغارة .

دنا راهب من مارينوس وحدّق في وجهه فرأى نضارة الحياة واشراق البها. فلم يشك في انه حيٌّ وظنه مغرقاً في سبات نوم هنيء فناداه باسمه ثلاثاً فلم يُجب فجثه وهزهزه فاذا جثة هامدة فقال انه ميت ، وهذا هو سرٌّ ما رأينا وسمعنا من عجب خرجنا لنعرف سببه ، لقد وهبنا الله قديساً عظيماً . فالحجر الذي رذله البنّاؤون صار عمدة في الزاوية . يا لقوّة التوبة لدى الله محب التائبين ! ووقع نظر احدهم على الرقّ المطوي فالتقطه ودفعه الى الرئيس قائلاً : هاك يا ابانا هذا الرقّ لتنظر ما ينطوي عليه فبسطه الرئيس واعاده الى الراهب ليقرأ ما كتب فيه على مسمع من الكل فقرأ ما يأتي :

انا احقر عبيد الله مارينوس راهب دير قنوبين أُقصيتُ عن ديري بتهمة فحشا. رشقتني بها أسماء بنت كنعان رزق فلم أشأ ان ادفع التهمة بالحجة الدامغة مع قدرتي على دفعها بكلمة تسقط عن شفتيَّ دون حاجة الى شهود وبينات فانني بنت عذراء لا غلام كما صوّرت في وهم الجميع الى اليوم .

فبهت السامعون وتبادلوا العجب قائلين : مارينوس بنتٌ عذراء ! ما هذا الحادث الغريب ! ومضى الراهب يقرأ بقية المكتوب واذان كلهم مرهفة للاصغاء : قرأ ما يلي : انخرطت في سلك الرهبان الرجال بإلهام من الله لشأن من شؤون حكمته جلَّ وعلا ، وتنعّمتُ طائفة من الدهر بصحبة والدي المعروف بالاب مارون الاهدني ، ومنذ صرتُ الى منفاي في هذا الكهف عكفتُ على عبادة الله بكل ما اوتيتُ من نعمته. وربّيتُ الولد الذي اتهمتُ بأني ابوه فغرست في قلبه محبة الله ومخافته وخلال البرّ والصلاح ، وها انا اتركه إرثاً لاخوتي الرهبان ليتموا تثقيف عقله وتهذيب قلبه ويكوه من دعوته المقدسة التي وجّهت ميله اليها ، وأسألهم ان لا يأخذهم الاسف لما حلَّ بي من ضروب الشقاء. لأنَّ ما عانيته من شدائد النفي وما نالني من الخزي والعار والهوان ، به حصلت لي الزلفة لدى سيدي يسوع المسيح الذي اخترته عريساً لنفسي ، وها هو قد تكرّم باخراجي منقّاةً من كور الامتحان لينقلني الى سعادة الملكوت ، لذلك أنسى ما ورائي واغفر لكل من ظنَّ انه قد اساء اليَّ كائناً من كان . وان كانت لي سيئة تجاه احد فليمحها لي بيد المغفرة محبة لله كما غفر الرب يسوع لجميع المفتدين بدمه الكريم .

فالى اللقا. يا اخوتي الاعزا. في مملكة السعادة والبقا.

فبدا الاسف في وجوههم وتساقطت من عيونهم الدموع واخذتهم الخُبسة فصمتوا واجمين.

ثم تكلم الرئيس قال:

الويلُ لنا يا اخوتي لقد رذلنا قديسة كبيرة وقضينا على بريئة قضاء ظالماً شديداً، وغمسنا حياتها بالمرائر والاوجاع تسرُّعاً في القضا. وجوراً. فلنجثُ حول جسدها المكرَّم ونغسل قدميها بدموع الندامة آسفين.

سلوا معي نفسها الطاهرة ان تغفر لنا خطيئتنا الجائرة وتشفع فينا لدى منبر الديَّان الرهيب.

احملوا هذا الجسد التقيَّ الى معبد الدير بكل اجلالٍ واحترام لنكفّنه بالرحمة والدموع وندفنه مكرَّماً بجانب ابيه المأسوف على فضائله الجنَّة الاب مارون. فيكون جسداهما ينبوعي بركةٍ كما ان نفسيهما لساناً شفاعةٍ في السما.

فجثا جميعهم يصلّون ويلتمسون المغفرة من الله، وفيهم ناسكٌ يُدعى جرمانوس جثا بجانب الجثمان وغطّى وجهه بكفّيه ورفع صوته بالبكا. واخذ يودّع الراحلة بهذا الكلام:

واعزيزتي مارينا وامهجة فريد ابن عمك المصدَّع الفؤاد. واحرَّ قلباه! لقد كنتِ السبب لزهدي في الدنيا وتقيدي بخدمة الله راهباً في هذا الدير.

ويحي! فكنتُ معصوب العينين، إذن! عشتُ معكِ عدة سنين وحادثتكِ وجالستكِ وآكلتكِ وصلينا معاً وتعاطينا اشغالنا الديرية متعاونين وحملتُ اليكِ الخبز مدى اربعة اعوامٍ اضعه على الصخرة المحاذية لكهفكِ المبارك ولا اراكِ ولا اكلّمكِ ولا اعزّيكِ ولا اعرفكِ لان السلطة حرَّمت ذلك عليَّ. أي مارينوس اخي الذي احببته راهباً فوق ما احببته اختاً في دار والدينا المرحومين.

اذهبي بسلامٍ وسيجمع اللهُ بين روحينا بمحبةٍ طاهرة خالدة واتحادٍ نقيٍّ لا يرنّق صافيه خوفُ الانفصال.

وبينا هم في هذا الشأن دخل اليهم كنعان رزق بغتةً وقال :

يموتُ الصدّيق مُهاناً ويُدفن مكرّماً .

أبى الله ان تُدفن هذه البارّة قبل ان يُعلن برُّها على الملا .

لقد كنتُ احسبها رجلاً كما كنتم تتوهمون ، فصدَّقتُ تهمة ابنتي فضللتُ ، فلمَّا تكشَّف لي الحقّ ندمتُ واستغفرت .

والآن إراحةً لضميري واستناداً الى اقرار ابنتي الاخير البعيد عن الكذب والمفرغ في قالب الصراحة والوضوح . اوضح حقيقة الواقع لكم وللتاريخ .

احبّت ابنتي مارينوس لجمال صورته وحملتها الوقاحة على مراودته فحمل عليها بقسوة الصدّ والتوبيخ فحنقت منه وحملت حقدًا عليه ثمّ وقع لها الجنا مع شاب متشرّد فلما انكشف سترها ، اتهمت مارينوس تشفّيًا ، فاخذنا بقولها فكان ما كان .

فيا ايتها القديسة المكرّمة أبت فضيلتك ان تأذن لي بهذا الايضاح لتبرئتك وانتِ في قيد الحياة فاغفري لي ولابنتي التائبة واستمدي لنا نعمة الخلاص الابدي .

وحضر سمعان كاهن القرية التي يسكنها كنعان وصاح :

الصفحَ الصفحَ يا قديسة الله ، فانّ الرب منتقمٌ لكِ من قريتنا لخطيئة واحدٍ من اهلها .

اشعل سخط الرب نارًا حول القرية تلتهم الاخضر واليابس .

والريح تسوق اللهب جهة البيوت والخطر فاغرٌ فاه متحفزٌ للوثوب وانا كاهن القرية اتيتُ استعطفُ قلبكِ للغفران .

وانتم ايها النسّاك الاتقياء ارشقوا شفاعتكم نحو السماء .

فدفع اليه الرئيس رداء القديسة وقال :

لوّح بهذا الرداء جهة القرية يكفّ الغضب وتطفأ النار وتسلم البيوت وقشة من محتوياتها لا تحترق .

فخرج الكاهن بالردا. وصنع بحسب الكلام الذي قاله له الرئيس وما تمّ ان رجع فقال :

هنا قوّة الله .

ما كدت انشر هذا الرداء المبارك حتى تراجعت النار عن القرية وطفأت وامّحت آثارها كنور شمعة تطفأ بنفخة فمك .

ما اعظم شفاعة القديسين وما اعجب ما يجري الله على ايديهم من معجزات .

حينئذٍ تعالت من افواه الجمهور اصوات التهليل والهتاف :

تمجّد الله في قديسيه فلتحيَ القديسة مارينا في تاريخ النسّاك مدى الاجيال وفي مقرّ السعادة والخلود في مملكة السيد المسيح الذي ليس لملكه انقضاء .